

الشعر الجاهلي

بطرس البستاني

١٩٦٥

صدر عن دار المعام بطرس البستاني

الشعر الجاهلي

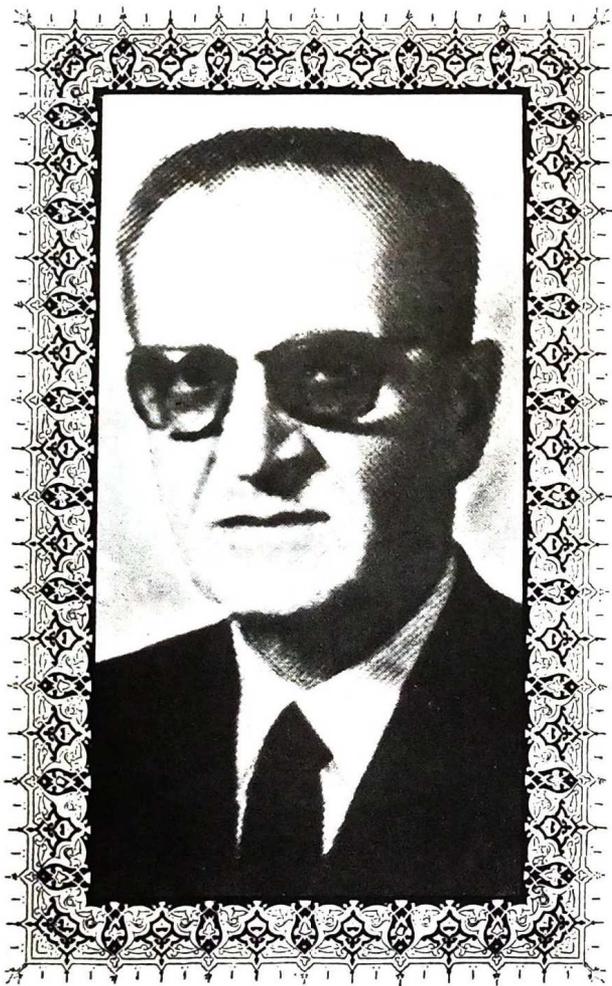
بِطْرَسِ الْبُسْتَانِي

١٩٦٥

صَدْرَ عَد. دَارِ الْعَامِ بِطْرَسِ الْبُسْتَانِي

جميع الحقوق محفوظة
للوريشة الوحيدة السيدة
ماري تريزالبستاني

أشرف على الطباعة والتنفيذ
المحامي سامي باسيل



إيضاح

يوم دخلت علي في المكتب السيدة ماري تريز البستاني الوريثة الوحيدة للمعلم المرحوم بطرس البستاني وعرضت علي المخطوطات من أجل طباعتها ، شعرت بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقي سيما واننا نطبع للمعلم الشهير كامل نتاجه في الادب العربي . وللمعلم الغني عن التعريف فيض من عطاء دافق كينابيع هذا الوطن في انفتاح على العالم العربي الارحب ثقافة وحضارة وعلمنا .

لقد نهل المرحوم بطرس البستاني من مناهل الادب العربي الى ما لا نهاية وطفق يقنن ما درس وحصل ويرتب العطاءات من العصر الجاهلي الى صدر الاسلام الى الادب الاموي فالعباسي حتى الاندلس بمعنى أن المعلم لم يترك بابا او لونا في الادب العربي الا واشبعه درسا وتمحيصا حتى ان القارئ اذا ما انفتح على نتاج المعلم باكملة فانه يكون قد درس كامل حضارة العرب شعرا ونثرا .

وربما شجعني على حمل هذه المسؤولية الكبيرة شعوري بواجب الوفاء نحو المعلم الذي تتلمذت عليه في مدرسة الحكمة في احيلى ايام العمر .

ويشهد الله اننا مع انكبابنا على طباعة مخطوطات المعلم الراحل كان همنا الاول والاخير الاخلاص والامانة للنتاج بدون تحريف او اهمال او تحوير وكان المعلم شاهد على ما نعطيه .

ومع اخلاصنا لامانة المرحوم المعلم الشهير نعاهد القارئ الكريم على متابعة العمل حتى اظهر كامل النتاج .

المحامي سامي باسيل

المقدمة

بقلم الدكتور الشيخ صبحي الصالح

منذ عشرين عاماً تلاقينا على حب العصر الجاهلي أدباً وتراثاً ، وما كنتُ أحسبُ أنني ذات يوم سأقدم نقداً تحليلياً لكتاب ألفه في « الخمسينات » ، وما كنتُ لأتوقع أن كتابه هذا يدور حول العصر الذي أحببناه ، ولا حول الشعر فيه بوجه خاص ، وهو ما ائلف عليه قلبانا منذ اللحظة الأولى . . .

ويومَ لقيتهُ في الجامعة اللبنانية أيقنتُ بيني وبين نفسي أنه أكثر من زميل ، إذ كنتُ قبل ذلك طوالَ السنينِ السبع (التي قضيتها أستاذاً في جامعة دمشق) مؤلماً بمطالعة كُتبه ، قبل تعرُّفي الى شخصه وإعجابي بسجايه .

كنتُ راغباً في تكريمه حياً ، وأحسبُني الآن في مقدمتي لأدبه الحيّ ما زلتُ أكرمه حياً !

من مألوف عاداته أنه كان بنفسه يقدم لما كتب ، فلعلَّه في كتابه هذا عهدٌ بمهمة التقديم لصديق عرّفه كما عرف نفسه . وأشهد أنه في كل ما كتب كان أدبياً مُشرق الأسلوب ، باحثاً غني الثقافة ، ناقداً واضح الرؤية دقيق المعايير .

كتاب المعلم بطرس البستاني عن « الشعر الجاهلي » أرسله الى الأهل والأصحاب مرقوناً على الآلة الكاتبة ، فإذا هو - كما توقعتُ - أفانينٌ من الدوحة « البستانية » ، فيه من النَّفحات الشَّدِيَّةِ بِقَدْرٍ ما فيه من الثمرات الشهيّة .

وأكبر الظن أن « البستاني » لم يبوّب بنفسه فصول كتابه تبويباً نهائياً كاملاً ، بل طواه على أشتات من البحوث وألوان من الدراسات ، ضمّها عصر واحد ، وروح واحد ، فنشأ عن تنوعها واثلافها عنصر مشوّق يُغري بقراءتها

كلها في مجلس واحد ، ويعكس في مرآتها الصافية صورةً حقيقية حلوة عن الشعر الجاهلي بجميع خصائصه ومزايه .

ونزعة البستاني « الكلاسيكية » التي انطبعتُ بها جمهرةُ دراساته ، أملتُ عليه أن يستهلّ كتابه بفصلٍ ممتعٍ عن « الشاعر والطلل » . وكان لزاماً عليه هنا أن يعرّض - كما عرض مؤرّخو الأدب قبله - للشاعر الجاهلي امرئ القيس أول واقف على الأطلال ، وأول باكٍ ومُسْتَبَكٍ على الديار . لكنّ نزعته « النقديّة » سرعان ما تغلّبت على نزعته « التقليديّة » عندما أنشد مع الشاعر الكِندي بيتاً ينفي به عن نفسه أوّلِيّة البكاء على الأطلال ، ويعزّوها الى ابن خِدام :

عُوجًا على اطللِ المُحيلِ لعلنا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خِدامِ

إنّ المعلم « بطرس » يجهر في هذا الموضع بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك الباكي الأوّل قبل امرئ القيس . ويعلّق على ضبط اسم ابن خِدام (بالخاء المُعجّمة) ، ويحكي قول من فضّلوا تسميته ابن حمّام (بضمّ الحاء المُهمّلة) ، ويتردد كثيراً في الاعتراف بوجود ذلك الشاعر ويتساءل عن مدى صحة البيت ومدى سلامة القصيدة التي استهلّت به من التّحلّ ، ثم يقول مع ابن سلام (في طبقات الشعراء) : « هو رجل من طيّء لم يُسمَعْ شِعْرُهُ الذي بكى فيه ، ولا شِعْرٌ غيرُهُ هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس ! »

وكأنّي بباحثنا الجليل يضطرّنا ، بنقديه الحصيف هذا ، الى الإقرار بأن الشاعر الكِندي كان بلا جدال ، أول الباكين على الأطلال ، وكأنّي به في الوقت نفسه يريد أن يُقنّعا - كما اقتنع هو - بأن الوقوف على الديار حقيقة واقعة لا قصة وهمية من نسج الخيال ، ما دام البدوي المتنقل في الصحراء يمرّ أحياناً بديار الأحبة ويرى في بقاياها مسرح الذكريات ، فتشخص في قرارة وجدانه صوراً الدّمنة والنّوي والمؤد ، ومعها صورة الحبيبة الحسناء .

وروح الدعابة لا تُزائلُ ناقدنا ما وجد إليها سبيلاً : فما انفك يقارن بين الواقفين على الديار ، ويُفاضلُ بين ما روي عنهم من القصائد والأشعار ، حتى

انتهى إلى الشعراء العباسيين الذين لم يَسْتَكْفِبِ الْمُتَرْفُونَ منهم - مع أنهم كانوا في القصور لا في الخيام - من طول الوقوف على الدَمْنِ والأطلال . ثم ارتقى إلى القرن العشرين فألفاهُ غيرَ « محروم » من ذاك النَمَطِ « التقليدي » الغَزَلِ الباكي الذي ظلَّ يَحِنُّ إليه عددٌ من الأدياء ، في طليعتهم شوقي أمير الشعراء . . .

وفي دُعابة حلوة مَرِحَة يتذكر « البستاني » ما كان من أمر الشيخ إبراهيم الحوراني الذي لم يكن يَسْتَجِيدُ الغَزَلَ إلا « عائجاً » على منازل الأعراب ، وَرَوَى عنه أنه أنشد ذات يوم :

ما بَيْنَ باناتِ العَقِيقِ وحاجِرِ أَجْرَى الغرامِ دمَ الحِشا بِحاجِرِ

فَقيلَ له : لماذا لا تذكر أماكنَ بلدك ؟

فأجاب : إنها غيرُ مأنوسةٍ في الشعر . . . أتريد أن أنشد :

ما بَيْنَ بُرْجِ محبشِ والطِيونِ أَجْرَى الغرامِ دمَ الحِشا بِشُؤني؟؟

وفي هذا المقام ، ما كان للمؤلف أن ينسى فضل لبنان ، وإذا هو يَرْتَوِ بِبصره إلى شعرائنا المُبدعين الأفاضل في ربوع الوطن وديار الاغتراب ، فيرى أنهم هم الذين جلدوا الشعر العربي وفكوا عنه القيودَ والأغلال ، وأنهم هم الذي استنقذوه من البكاء والوقوف على الأطلال ، وهم الذين فجروا منه يَنابيعِ السحر والجمال ، بما استحدثوه من بدائع الأساليب وروائع الألوان .

ولتَجِدَنَّ انتقاله بعد ذلك الى وصف الحضارة الجاهلية طبيعياً جداً ، لأنَّ استرساله في الحديث عن « الشاعر والطلل » ربماً أوهمَ كثيرين أن لا حضارة لقوم ضربوا الأطناب والأوتاد في الفياقي والبيد ، ولم يذوقوا حلوة المقام في قصر مَشِيد . بيدَ أنَّ عروبة هذا الكاتب الأملعي حالت دون تأثره بهذا الرأي الساذج ، فهو يعلم أن الناس يخلطون بين الحضارة والمدنيَّة ، ويوقن معنا بأن الحضارة تقوم على البشر حين تقوم المدنيَّة ، على الحجر ، وأن الحضارة هي « ما نحن » بينما تكون المدنيَّة هي « ما نصنع » ، وأن الحضارة هي الروح العميق في المجتمع الأصيل حين لا تزيد المدنيَّة على بناء أبكم وآلة صماء !

إن معنى الإقامة في الحَضْرَ الذي صرَّح به المُعْجَمِيّون العرب لَدَى شرح لفظ « الحضارة » مظهر بسيط من أقلّ مظاهرها شأناً : فقد تنشأ الحضارة في القرى والأرياف ، أو تتوغّل في الصحاري والواحات ، إذا أُتيحَ لها أن تقوم أساساً وجوهراً على منهج مستقلّ فريد ، ومُعْطٍ من العيش ليس له مثل ، يتوارثه الأبناء والحفدةُ جيلاً بعد جيل .

ومع أن بطرس البستاني يرى الشعب الجاهلي يوشك أن يمثّل الإنسانَ الأول في منازع فِطْرته ، وأنه غريب عن القوانين والشرائع إلّا ما قُضتْ به العادات والأعراف ، وأنه نشأ على هوى الطبيعة خَشِنَ الجسم جاني الطباع ، لم يحمله هذا ولا ذاك على إنكار ما في مُناخ الجاهلية من تأهّبِ حضاري خاصّ ، نَمَّ عنه وكاد يَشِي به ذلك الأدبُ الشفهيّ ، المألوفُ المعاني البسيطُ الأغراض ، الذي عَوَّضتْ « ماويتهُ » النديّةُ تَلَهُفَ شعرائه الظمّاء ، إلى قَطْرَةٍ من ماء !

ولَدَى وَصْفِهِ تَعَطُّشَ البادية إلى الماء النмир ، وما لِفَصْلِ الأمطار من شأنٍ خطير ، وما للشعراء من قصائد تتلمسُ السحابَ المَطِيرَ ، تُعاوِذُهُ الذكري إلى لبنان ، فما تُبشِّرُ الأرضَ بالخِصْبِ والإمراعِ إلّا شماريخُ السحاب في جبل لبنان . وهو هنا لم يخترع قصيدةً ولا أبياتاً ، بل أجاد الرواية وأتقن الاختيار ، وهتف مع مُلْحَةٍ الجَزْمِي الجاهلي ببيتٍ من مقطّعة عربية خالصة العروبة ، رويها حرف الضاد :

كَانَ الشَّارِيخُ العُلَى مِنْ صَبِيرِهِ شماريخُ من لبنانَ بالطُولِ والعَرَضِ
ولَكَمْ فَسَحَ في كتابه المجال رحيباً لقصة الشعراء الفرسان ! وهل يطيب
الحديث إلّا عن أولئك الفرسان؟

عن خيولهم وأسلحتهم ، وأقاصيصهم ومغامراتهم ، وعشقتهم
وغرامهم ، وعن كل صغير وكبير في حياتهم . . .

ومغضي في كتابه شَوْطاً فنلاحظ معه أن حروب العرب كثيرة ، وأنها غزوات
غير منظمّة ، وأنها لُقِّبت « بالأيام » لأنّ جُلّها وقع في النهار ، وأنّ الشعر الحماسي

أوسع الأبواب الجاهلية ، ثم نشهد معه أن آداب الفروسية لم تحل دون مدح الجابرة الظالمين ، وأن بعض الفرسان أباح الغدر عند الأخذ بالثأر ، وإن كانت شريعة الثأر قد خففت من حوادث القتل ، وأن ندب الأبطال المجذلين ، والغلو في وصف أولئك الأبطال ، والتهاجي بالهزائم والانكسارات ، كل ذلك قدم لدارس العصر الجاهلي مادة غنية لا تنضب عن الفروسية والفرسان .

ولما أفاض في وصف القفار الموحشة التي كان الأبطال يسلكونها ، مندفعين إلى المهالك ، هازئين بالأخطار ، لم يفتَهُ أن يصور تحديهم للموت بظعينة تسير معهم في الصحراء : فالمرأة في ساعات البأساء تشجعهم على حُسن البلاء ، أما العاذلة فإنها شخص رمزي يقرع باطناً أبواب الفخر وهو يقرع ظاهراً أبواب الملام .

وحديث الفروسية لا يُستكمل إلا بتحليل النفسية البدوية التي تأبى الخضوع للأنداد . وفي البداية اختار (البستاني) لهذه الغاية تحليل « نموذجين » : أحدهما عمرو بن كُثُوم والآخر حاتم الطائي ، إذ كانت لأولهما نفسية السيد العريق المستأثر بالفضائل الجاهلية ، على حين كان الثاني رمزاً للكرم والجود وغرائب الضيافات التي أثارت في ذهن المؤلف عدداً من التساؤلات .

ويمهد للانتقال من السادة الفرسان إلى العبيد والصعاليك الفرسان أيضاً بكلمات لحاتم الطائي فاخرَ فيها بالفقر والتصعلك كما فاخرَ بالغنى والكرم والجود :

غينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلاً سقناه بكأسيهما الدهر
ويطيب للقارىء أن يتابع البستاني مُضيفاً على مجتمع الصعاليك صفة المجتمع الاشتراكي الصغير ، متحدثاً عن فخرٍ للعبيد لا يقل عن فخر السادات والأشراف ، طليخُلص إلى عنترة في « نموذجه » الجامع بين الفروسية والعبودية ، ولينتهي إلى أبي الصعاليك عروة بن الورد الذي سما بكارمه إلى أنبل نفس إنسانية حملها جسمُ صعُلوك .

ولا مناصراً من الشهادة ببراعة التنقل في هذا الكتاب من باب إلى باب :
فمن السادة إلى العبيد ، ومن اشراف إلى الصعاليك ، ومن الصعاليك إلى
الفتيان ، ومن الجميع الى الفتى طرفة بن العبد ربيب الحضارة والعمران .

وللمؤلف بعد ذلك نظرة طريفة إلى شعر المديح والهجاء ، فهذا النوع من
الأدب جزء من الشعر السياسي ما دامت سياسة القبيلة هي التي تفرضه وتُمليه .
وحول هذه السياسة القبليّة تدور فصول الكتاب الباقية ، سواء أتناولت شعر
زهير أم النابغة ، وسواء أعرضت بالمتكسبين في شعرهم أم دافعت عن المتكسبين
من الشعراء .

وإذا سألت عن « المعلقات السبع » أو « القصائد العشر » ، أين مكانها من
هذا الكتاب وهي من العصر الجاهلي لبُّ اللُّباب ؟ أُلْفِيَتْ ما تَرُومُهُ مُنْبَأً في أكثر
من موضع ، غيرَ محصور في فصل محدّد ، وإن كان ما دُرِسَ منه وحلّلَ نمطاً
يُحْتَدَى في النقد الأدبي الرفيع . وإنّ ذلك لِيَصْدُقُ أكثر ما يَصْدُقُ على معلقات
عمرو بن كلثوم والنابغة وزهير .

ويبدو في نهاية المطاف أنّ المعلم بطرس البستاني - خلافاً لعاداته - لم يَضَعْ
بنفسه خاتمةً لكتابه مثلما أغفلَ التقديمَ له . . فإنّ تَرَكَ لصديقه النهاية كالبداية ،
وإنّ كنتُ حقاً هذا الصديق ، فلم يبقَ إلّا أن أُنَاجِيَهُ في الختام : ستظلّ يا بطرس
حيّاً بذكراك ، في هذا الكتاب وفي غير هذا الكتاب .

الدكتور الشيخ صبحي الصالح

الشاعر والطلل

يخبرنا الرواة أن امرأ القيس هو أول من ذكر الديار في شعره ، فوقف عليها واستوقف ، وبكى واستبكى في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فاستحسن العرب منه هذه الطريقة ، واتبعه عليها الشعراء ، فأصبحت من بعده أسلوبا تقليديا ، يطوي القرون ويتخطى الأجيال . وفي كل عصر له اتباع وأنصار حتى اوائل القرن العشرين .

على أن الأمير الكندي ينفي عن نفسه هذه الاولوية التي أضافها الرواة اليه ، فيقول من قصيدة :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا

نبكي الديار كما بكى ابن خدام

فقد جعل نفسه تابعا لغيره ، لا مبتدعا طريقة ذكر الديار والبكاء عليها ، وان كنا لا نعرف شيئا عن هذا الباكي الاول . فلو لم يذكره امرؤ القيس في شعره ، على فرض سلامة القصيدة من النحل ، لما جاءنا عنه خبر من الرواة الاقدمين . قال ابن سلام في طبقات الشعراء : « هو رجل من طيء لم يسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعر غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس » .

ويختلف الرواة في ضبط اسمه ، فيقول بعضهم انه ابن خدام بالخاء المعجمة ، وبعضهم الآخر يزعم انه ابن حمّام ، ولكنهم يقتصرون جميعا على هذا

الحد من التعريف به ، والتحدث عنه لجهلهم حقيقة امره .

وسواء لدينا صح وجود ابن خذام اولم يصح ، وسواء لدينا بكى في شعره أو لم يبك ، فان الوقوف على الديار شيء طبيعي عند القبائل المترحلة ينشأ مع الشعب ، ولا يعرف له بدء ولا مبتدىء . فان البدوي المتنقل في صحرائه لا بد له من المرور بأرض كان يقطنها من قبل ، فتعوده ذكريات حبيته الى قلبه تستثيرها بقايا الطلول الدوارس من نؤي ودمنة وموقد ، فيقف عليها وفي نفسه حين الى ايامه الخالية . فغير عجيب أن يبث خواطره شعرا باكيا اذا كان من الشعراء ، وانما العجيب أن يعرف هذا الشاعر الذي وقف قبل غيره وبكى ، في عصر لم يكن ابناؤه مؤهين لتدوين أدهم وحفظه في الصحف ، فيرجع اليها الباحثون في خصائص الشعر الجاهلي وتطوراته ، لا أن يكون المحفوظ لديهم ما تناقله الرواة شفها بعضهما عن بعض ، أو عن القبائل البادية ، مع ما في رواياتهم من ضبط ونحل وقرر الى التحقيق والتحميص .

وان فاتنا شعر عن ابن خذام لتبين منه كيف ذكر الديار وبكى عليها ، فقد جاءنا شعر عن أشخاص عاصروا أمراً القيس أو تقدموه يحمل الينا صوراً جلية عن مذهب الوقوف والبكاء ، مما يدل على أن هذه الطريقة كانت شائعة مشتركة بين شعراء الجاهلية . فنجدها عند الحارث بن عباد البشكري والمرقش الاكبر ، وبشر بن أبي خازم الأسدي . قال الحارث بن عباد ، وكان معاصراً للكليب والمهلhel وشهد حرب البسوس :

هل عرفت الغداة رسماً محيلاً

دارساً بعد أصله مجهولاً

وقال المرقش الاكبر :

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبنى الخيم

أعرفها دار لاسماء فالدمع على الخدين سحّ سَجَمْ

وتظهر هذه الطريقة واضحة في شعر عبید بن الأبرص الاسدي ، وكان نديماً

لوالد امرئ القيس ملك بني أسد وربيعة . ثم تنكر له منحازا الى قبيلته الغاضبة لما لقيت من جور الملك الكندي ، ولم تلبث أن انتفضت عليه وقتلته . فأخذ امرؤ القيس يهدد بني أسد بشعره ، وعبيد يرد عليه مدافعاً عن قومه .

وقد أكثر عبيد من ذكر الديار والبكاء عليها ، ولم يفته استيقاف الصحب كما فعل امرؤ القيس في معلقته ، فمن قوله :

أمن منزل عاف ، ومن رسم اطلال
بكيث ، وهل يبكي من الشوق امثالي

وقوله :

دار وقفت بها صحبي أسائلها
والدمع قد بلّ مني جيب سربالي

فهذه الأبيات تذكرنا بأسلوب الشاعر الكندي ، وتعطينا أمثلة صالحة عن الطريقة التقليدية التي يضيفها الرواة اليه .

فهل تأثر الشاعر الشيخ بأسلوب الشاعر الفتى فترسمه في الوقوف والاستيقاف والبكاء على الديار ؟ أم هل تتلمذ أمير كندة لنديم أبيه فسار على خطاه ، واشتق أسلوبه من أسلوبه .

قد يحتمل الامران ، وان كنا نؤثر امرأ القيس على عبيد ونعلم أنه أقدر على الابداع من شاعر بني أسد . ولكن الاسلوب التقليدي ، كما يظهر ، كان شائعا في عصر الملك الضليل أو قبل عصره . فأكثر الشعراء وقفوا واستوقفوا واستنطقوا الديار وبكوا عليها . ولعل شاعرنا الكندي ظهر على غيره في هذه الطريقة لمكانته الملوكية من جهة ، ثم لاستطالته في الشعر على معاصريه من جهة اخرى . وليس علينا أن ننسى معلقته وسواها من قصائده التي لا يقف أمامها شعر عبيد وغيره من الجاهليين المتقدمين . وكذلك ابتداءاته التي ذكر فيها الديار ولا سيما مطلع معلقته ، فانه أجمع كلمة لطريقة الوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء ، حتى ضرب به المثل فقيل أشهر من قفا نبك . ولم يبق شاعر في الجاهلية وصدر الاسلام

الا اعتمد هذه الطريقة وطبع على غرارها ، حتى جاء العصر العباسي ، فتبناها بعدما حلها بالوشى الجديد والاستعارات الحضرية . ولم تحرم في القرن العشرين شعراء يحنون اليها كشوقي وحافظ وسواهما . وكان الشيخ ابراهيم الخوراني لا يستطيع الغزل إلا إذا عاج على أماكن الأعراب وهو القائل :

ما بين بانات العقيق وحاجر أجرى الغرام دم الحشا بمحاصري

فقل له لماذا لا تذكر أماكن بلدك ؟

قال : أنها غير مأنوسة في الشعر ، أتريد أن أقول :

ما بين برح محبش والطيونسي أجرى الغرام دم الحشا بشؤوني

وأكد أنه لم تكتب الحياة لاسلوب أدبي كأسلوب الطلل . فقد نيف عمره على اربع مائة سنة والف ، ولم يلفظ أنفاسه الا منذ عهد قريب ، ولعله لا يزال يجود بروحه في بعض الاقطار العربية المتمسكة بالقديم . فأية قوة حيوية قيضت له الخلود الطويل على عوادي الدهر وتبدلات المكان ؟ قد يكون لذكريات الحرب في منزل هجره أصحابه يد في استبقاء طريقة الوقوف على الديار . لان ذكر الاماكن لا يقتصر على البدو المترحلين ، فاهل الحضر لهم قسط منه في انتقالهم من مسكن الى آخر . على أن هذا لا يميز للشعراء أن يتواضعوا على أسلوب واحد حتى يصيروه مبتذلا لكثرة عرضه وتكراره ، ولا سيما العباسيون منهم فإنهم كانوا يرددون اسماء أماكن البادية كأنهم عرفوها أو عمروها ، ويقفون على الطلل البالي ، وهم في القصور لا في الخيام .

فإذا كان هذا الاسلوب لا يصح لشاعر حضري في بني العباس ، فأولى به ألا يصح لشاعر في القرن العشرين . فالوقوف والبكاء ووصف الأماكن الصحراوية ، والتشبيب بعرائس الوحي القديم ليس من عمل الذكرى والشعور عند الشعراء الحضريين ، وإنما هو من عمل الذاكرة وحب التشبه بالأقدمين .

ولم يتحول الشعر الى الجديد الخالص إلا بعد الحرب العالمية الأولى وكان للشعراء اللبنانيين في الوطن والمهاجر فضل المتقدم في تحطيم ذرته ، فتفجرت عنها

الألوان الطريفة والأساليب المستحدثة . وغار الطلل بانقاضه . وبخل الشعر بآخر
دمعة يذرفها في جنازته بعد طول البكاء عليه .

مراجع :

- ابو الفرج : الاغانى . امرؤ القيس . عبيد بن الأبرص .
- ابن سلام : طبقات الشعراء
- ديوان امرئ القيس
- ديوان عبيد بن الأبرص
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء

الحضارة الجاهلية

الفطرة وأثرها في الشعر الجاهلي :

الفطرة في الشعر الجاهلي شائعة على أغراضه ومعانيه ولغته وتصاويره . فالطبيعة التي يصفها لم تكتمل نشأتها ، ولا اختلفت مناظرها وألوانها ، ولا أخرجت ما في بطونها من كنوز الأرض وخير السماء ، فتكون جبالها جنانا معلقة ، وحراثها نهورا دافقة ، ورمالها رياضاً مزهرة ، وكثبانها خمائل أشجار تهدلت أغصانها ، تغني فوقها أصناف الطيور ، وتستظل تحتها أصناف الحيوان . فشعرهم حافل بوصف القفار الخالية ، والبراري الموحشة ، والرمال المحدودة ، والكثبان المتقابلة . والجبال جرد صغيرة ، والمياه بقايا المطر في الآبار والغدران . والعشب قليل السباح مرهون بسقوط الغيث ، لا شجر إلا كل ظمآن العود دقيق الورق شائك الرؤوس ، ولا حيوان إلا ما أمكنه ان يعيش في تلك الارض الفطرية ، من طويل الساقين أو سريع الخطوات ، بوسعه أن يقطع المسافات الطويلة ، ولا ينقطع في عرض الطريق كالبعير والفرس والذئب والحمار الوحشي وما أشبه .

وعمران البادية ، أي عمران يتراءى في الشعر إلا ما مسح الله به وجهها المسحة الاولى ، لم تمتد إليها يد انسان ، فتخط مدنها وأمصارها ، وتشق طرقها وشوارها ، وترفع بناياتها وجدراؤها ، وتجبر المياه الى دورها وبساتينها . ليس من البنيان الا خيام منصوبة يطوف حولها الشاعر ويتغنى بسكانها ، يدور بها نؤى « كجذم الحوض لم يتلم » يحول دون تدفق المطر اليها ، أمامه موقد نار وركية ماء تطلع الشمس فتشر أشعتها على كل مكان لا يعترض طريقها حائط يحيط ، ولا بناء مبني . ويهطل المطر فتستقبله الارض بأجمعها ، تبتلع منه ما تشاء ، وتستبقي ما

تشاء ، لا يستوقفه حاجز ، ولا يجريه انبوب ، ولا تصرفه قناة . تنصب الخيام وتقتلع ، الى حيث يجدون موطناً جديداً ، ينتجعون فيه الماء والكلأ . وما وجود بعض القرى في الشمال كمكة ويثرب والطائف بخليق أن ينفي فطرة الفضاء الأوسع من اللاعمران .

والشعب الجاهلي يكاد يمثل الانسان الاول في بدء نشوئه ، لا يتسع مجتمعه الى أبعد من قبيلته ، يتعصب لها ما دام يرى في ذلك خيراً ونفعاً له ، كعصبية عمرو بن كلثوم لبني تغلب ، وعصبية ابن حلزة لبني بكر . ويتخلى عنها وينكرها اذا الحقت به أذية وضيا ، فعل الشنفرى والنابغة وطرفة . لا يفهم معنى للوحدة القومية ، ولا يحن أن يجتمع أمة واحدة . فشعره متصل بقبيلته يدافع عنها ويفاخر بقيس أو بتميم ، ولا يفاخر بالامة العربية ، لان حياته الاجتماعية لم تنزل على فطرتها الأولى لا تتعدى الأسرة أو العشيرة .

مترحل لا يستقر في موضع ، يحمل وطنه على ظهر بعيره كما يحمل أمتعته ، فكل مكان له منزل ، وفي كل منزل حنين وذكريات وتحيات للرسوم والاطلال :

الا عم صباحا أيها الطلل البالي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي

غريب عن القوانين والشرائع الا ما قضى به الناموس الطبيعي عرفا وعادة . يقبل سيادة القوي ما بقيت حقوقه مضمونة ، ويخل بها عنه اذا أحس الظلم والحيف ، كما انتفضت بنو أسد على الملك الكندي ، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند :

بأي مشيئة عمرو بن هند

نكون لقبلكم فيها قطينا

تهددنا وتوعدنا رويدا

متى كنا لأمك مقتونينا

متمرد كصحرائه لا تباح حرته لفتاح او مستبد ، ولا يستهان جانبه ، أناني يستأثر بالخبر والفضائل دون غيره لتأصل الفردية في نفسه ، وتغلب الشخصية على

ذاته فاذا وهب وأعطى فما يرضاها صدقة خفية بل لكي تذاق على المألأ فيفتخر بها ،
ويمتدحه الناس من أجلها . فكل شاعر يفاخر بفضائله ، ويشيد بكرمه ، وكل
سيد يجب أن يمدح بجوده وشجاعته وحلمه . يبذل المال من أجل السيادة والذكر
الحسن ، ويجاهر بذلك ولا يجد فيه غضاضة ، قال حاتم الطائي :
يقولون لي : أهلك مالك فاقتصد ،

وما كنت ، لولا ما تقولون ، سيدا

يعيش من السلب والنهب ورعاية الابل ، أقدم الوسائل النافعة للانسان
الفطري : فأبوا بالنهاب وبالسبايا .

وابنا بالملوك مصفدينا

وينفر من التجارة لا يحسنها ومن الصناعة واجدا فيها دناءة ومذلة ، وقد عير
النعمان بخاله الصائغ ، قال النابغة :

قبّح الله ثم ثنى بلعن

وارث الصائغ الجبان الجهولا

وما آتته الارض فيكون حارثا زارعا إلا في مواطن قليلة محدودة .

نشأته الطبيعة على هواها خشن الجسم جافي الطباع ، حرا صريحا لا يعرف
التكلف والمهالقة ، صادقا ما طاب له الصدق ، وأكذب الناس اذا وجد الكذب
مفيدا ، يصدق ويكذب دون أن يتكلف الأمر ، وانما هو يصدر عن دافع غريزي
يتصل بنفسه ، ويكاد لا يعه وغريزة الطفل في صدقه واكاذبية : فمن صراحته
وصدقه قول طرفة :

الى أن تحامتني العشيرة كلها

وأفردت أفراد البعير المعبد

وقول عمرو بن معدي كرب وهو من أشد فرسان العرب :

حذر الموت ، واني لفرور

ولقد أجمع رجلي بها

ومن اكاذيبه العاطفية التي يدفعه اليها الفخر قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

أو يدفعه اليها التكسب مثل قول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ، وتوقد بالصفاح نار الحياحب

عبادته خليط اديان غير منظمة يجمع فيها الشرك والتوحيد : قال النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ،

وليس وراء اله للمرء مطلب

وقال في كلمة غيرها :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته ،

وما هريق على الانصاب من جسد

علامة اولية من معرفة مهاب الرياح ومطالع الكواكب ، الى المداواة بالكي

والقطران : قال النابغة :

لكلفتني ذنب امرتي وتركته

كذي العرّ يكوي غيره وهو راتع

فلسفة بديهية من آراء الشعب المشتركة ، أدبه شفهي شخصي بسيط

الأغراض مألوف المعاني متصل بحياته . لغته بين الشعر والنثر شأن غيره من

الشعوب الفطرية ، فيها شيء من انانيته ، تبدأ أبدا بنفسك اذا تحدثت عنها وعن

غيرك ، فتقول : أنا وأنت ، وأنا وهو ، ولا تقول العكس . صورة صافية دانية

القطوف ، قلما تجد فيها الغرابة والعنف ، يتصل معها بالطبيعة التي يعيش فيها ،

ولا يأنف أن يشبه باشتات نباتها وحيوانها ، حتى أحقر حشراتهما ، بيد أنه اذا

وصفها يعجز عن احيائها ، وربط مشاعره بمشاعرها لما هو عليه من صلابة النفس

الحياحب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء يتصادم حجرتين وسراج .

وجفاء الشعور وضعف الخيال . فان الفطرة التي فطر عليها في صحرائه القاسية غلفت روحانيته بالمادة الكثيفة ، فمنعتها أو كادت تمنعها من الظهور ، فجاء الشعر الجاهلي ماديا في كثرته ، ولكنه مثال صادق عن طبيعة البادية وطبيعة شعبها يستوي في ذلك الأغنياء والفقراء ، والسادات والصعاليك ، لا يختلف واحد منهم عن الآخر في فطرته وفرديته وتمرد نفسه الا بقدر يسير .

مراجع : المعلقات .

- ابو تمام ديوان الحماسة
ابو الفرج : أخبار شعراء الجاهلية في الأغاني
ابن قتيبة : أخبار شعراء الجاهلية في الشعر والشعراء
جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج . ١
احمد امين : فجر الاسلام

ظماً الصحراء يغمر الادب بالماء :

ليس الشعر الجاهلي ربيب الصحراء الظامئة ، الصحراء التي يتراءى فيها خداع السراب كأنه الماء على حرمانها جوارى العيون والجداول والانهار ، الصحراء التي لا يعيش فيها الانسان الا اذا رعت الماشية ، ولا ترعى الماشية الا اذا نبت العشب ، ولا ينبت العشب إلا إذا سقطت الأمطار ، فتمتلئ الآبار ، وتفيض الغدران ، ويرتوي الانسان والحيوان ، وتبشر الأرض الصالحة بربيع قريب .

والشعر الجاهلي المظهر الأعلى للادب الشفهي أحق من غيره بأن يحمل لنا صورة البادية في عطشها الطويل وتلهفها على قطرة ماء ، فنرى كيف كانت القبيلة تحمي مواقع السحاب ، فلا يرعى غريب حماها ، ولا يرد ماءه الا اذا استولى عليه عنوة وقسرا . ولطالما نشبت الحروب بين القبائل من أجل بئر روية وغدير معشوشب . ووجد الشعراء مادة لفاخرهم في ورود ماء تحميه قبيلة معادية ، كما قال معاوية بن مالك :

إذا نزل السحاب بأرض قوم
رعيناه ، وان كانوا غضابا

أو ورود ماء بين قبيلتين متحاجزتين تمنع احدهما الأخرى من الاقتراب منه
كما قال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطيير في وكناتها
لغيث من الوسمي رائده خال
تحاماه اطراف الرماح تحاميا
وجاء عليه كل اسحم هطال

أو إذا شرقوه صافيا لم تلحقه كدرة . و اشراف الناس هم الذين يردون المناهل اولاً ، فيلفونها صافية ، ورعاع القوم هم الذين يشربون الماء الكدر لأنهم يأتون في مؤخرة الواردين .

قال عمرو بن كلثوم :

ونشرب ، ان وردنا الماء ، صفوا ،
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

والحاجة الى الماء في البادية هي التي ولدت عقيدة ظمأ الميت في قبره ، لأن النفس عندهم غامضة المصير ، فالموت لا يبعدها كل البعد عن الجسد ، والجسد لا يخلص كل الخلاص من بعض ظواهر الحياة واعراضها . فطرفة يروي نفسه في الحياة لئلا يعطش بعد الموت :

كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم ان متا غاد ايننا الصدي

ومن يقتل منهم ولا يؤخذ بثأره يظمأ كثيرا في لحده . ويخرج من رأسه طائر يسمونه الهامة والصدى ، يصيح : اسقوني ، اسقوني ، ولا ينفك يستغيث مستسقيا حتى يراق الدم ويدرك الثأر . ولهذا كان الموتور لا يطمئن به مضجع ، ولا يأنس بالطيب والخمر والنساء حتى ينال وتره ، وينقذ قتيله من عطشة القبر وحرصده ، وفي تهديد أبي الاصبع العدواني دليل بين على رسوخ هذه العقيدة في النفوس :

انك الا تدع شتمي ومنقصتي ،

أضربك ، حتى تقول الهامة : اسقوني

وخوفهم من ظمأ القبر جعلهم يستسقون لميتهم فيسألون الله أن يبيل عظامه ، ويروي ثراه ، الى ما هنالك من ادعية بالسقيا تكفل ازالة العطش وتبريد الغليل .

وفي الادب العربي من الاستعارات والكنائيات الندية ما يخط صورة بليغة

عن حالة الصحراء في ظمئها الأبدي وتشوقها المطرد الى الماء والعشب . فاذا دعا البدوي بالخير قال : سقيا ورعيا . واذا مدح بالسخاء قال : سحت يده وفاضت راحته . وشبه الممدوح بالبحر والفرات . واذا وصف بالبخل قال : غاض معينه وجفت يميناه . واذا ذكر الفتوة والعزة والخفر قال : ماء الشباب وماء الوجه وماء الحياء الى ما هنالك من تعابير ماوية يحفل بها الشعر الجاهلي والقرآن وكتب اللغة والادب لغزارتها ، ولا نزال الى يومنا هذا نستعمل منها بالارث شيئا كثيرا مع ما في بلادنا من العشب والماء .

وحاجة البادية الى الماء جعلت لفصل الامطار شأنا خطيرا في الشعر الجاهلي لأن البدوي يشعر بالجوع في اواخر الصيف ، ويمجزه أن يرى العشب يابسا والغدران والآبار جافة ، وتمله الطبيعة بصحوها المستمر وحرها الخائق ، فتأخذه الكآبة خوفا من الجذب اذا احتبس المطر ، وضجرا من حياة متشابهة . ويظل على هذه الحال مرجيا تبدل وجه السماء لتأتيه بالغيث والفرج . حتى اذا أغبر الأفق وسطع البرق ، ابتهج ومضى يتأمل هذه الظواهر الجديدة في الطبيعة ، مترقبا نزول المطر . كما قعد امرؤ القيس بين ضارح والعذيب ينظر فرحا الى البرق والسيل الجارف يسحو الجبال ويفترش الصحراء ، فتنتلع الأشجار وتهدم الأكام الا ما بني بالحجارة ، وتسكر الطير وتوحل السباع :

اصاح ، ترى برقا اريك وميضه

كلمع اليدين في حبي مكلل

يضيء سنائه ، أو مصابيح راهب

اهان السليط بالذبال المقتل

قعدت له وصحبتني بين ضارح

وبين العذيب بعدما متأملي

وكما وقف أوس بن حجر يتلمس السحاب وقد أطبق عليه وتهدلت أذياله ،
وفجره الرعد فانهل بالقطار :

دانٍ مسفّ فويق الأرض هيدبُه
يكاد يدفعه من قام بالسراح
كأنما بين أعلاه واسفله
شريط مشرّة او ضوء مصباح
كأن فيه اذا ما الرعد فجره
دهما مطافيل قد همت بارشاح

وكما أرقّ ملحّة الجرمي البارق الوامض فابتهج به وبشر الأرض بالحياة بعد
البلبي :

أرقت ، وطال الليل ، للبارق الومض حيا سرى يجتاب أرضاً الى أرض
كأن الشماريخ العلى من صبيره شماريخ من لبنان بالطول والعرض
يباري الرياح الحضرميات مزنه بمنهمر الارواق ذي قرع رقص
يروّي العروق الكامدات من البلي من العرفج النجدي ذوباد والحَمْض

ويشدد ابتهاجهم عندما تهب الريح من جهة اليمن كما هبت ريح ملحّة
الجرمي من ناحية حضرموت ، فانها تأتي رخاء وتبشر بمطر غزير وخصب قريب .
فيتفعل البدوي ويستبشر كما تفعل الجرمي ، ولذلك اشتقوا معنى التيمن من
الريح اليمانية . بيد انهم يبتسون ويتطيرون اذا هبت من ناحية الشام لأنها تأتي
بالبرد والصقيع ، وتندّر بانقطاع المطر والقحط والجوع . ولذلك اشتقوا معنى
التشاؤوم من الريح الشامية .

ارشاح : تدريب الطفل على المشي والدب .

الهيدب : ذيل السحاب المتدلي

الشماريخ : أعالي السحاب ورؤوس الجبال . الصبير : السحاب الذي يصير بعضه فوق بعض أو
القطعة الدافقة منه . الارواق : الأمطار والمياه الصافية . رفض : متبرد . العرفج : شجر سهلي .
الحمض : ما ملح وامر من النبات ، وهو فاكهة الأبل .

والبدوي يؤثر البرد في جسمه لتعوده ، الحرارة ، ولا سيما الفقراء في اطهارهم
البالية ، وحرمانهم وسائل الدفء ، حتى انهم سموا البرد نحسا لتطيرهم منه . وقد
يضطر البدوي في شدة البرد الى أن يحطم قوسه ويشعلها ويستدفئ بها . واذا
أصطل الاعرابي قوسه وهي عزيزة عليه فليس وراء ذلك في الشدة شيء .
قال الشنفرى :

وليلة نحس يصطلي القوس ربهما

واقطعه اللاتي بها يتنبل

واذا تسلطت الريح الشامية ، وصمم القرّ ينقطع المطر وتمحل الأرض
ويفتك الجوع ، فتظهر البادية في مأتم محزن ، ويزدحهم الفقراء المملقون على
أبواب السادات والاشراف ، يتضورون جوعا وبردا . وفي مثل هذه الحال يستبق
الكرام الى اغاثة الجائعين وايوائهم ، والى ايقاد النار ليهدئ بها المدجون . في مثل
هذه الليالي القاسية تسمع حاتما الطائي يقول لعبده :

أوقد ، فان الليل ليل قرّ والريح ، يا موقد ، ريح صرّ
عسى يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفا فانت حر

هذه السنون التي يكثر بردها ويقل خيرها يسميها العرب السنين البيض او
الشهب ، وهي أشأم السنين عندهم وأثقلها وطأة ، وفيها يعرف قدر الاكرام كما
قال زهير في صاحبيه هرم بن سنان والحارث بن عوف :

اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،

ونال كرام المال في الجحرة الأكل

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم

قطينا بها حتى اذا نبت البقل

ولا بدع ان تكون السنوات الباردة القاحلة مادة فخر لكرام العرب

وشجعانهم ، فنسمع طرفه يفاخر بدعوته الناس الى الضيافة دعوة عامة :

الاقطاع : الهام المريضة الأصل . قطع . الجحرة : السنة الشديدة البرد التي تحجز الناس في بيوتهم .

نحن في الشتاء ندعو الجفلى ،
لا ترى الأدب فينا ينتقر

أو يقول مفتخرا بطبخه واقبال الضيوف على داره ، في يوم غائم وصحراء
عاتية ، ولا مطر الا الصقيع كالقطن خلال البيوت :

انا اذا ما الغيم أمسى كأنه

١ سماحيق ثرب ، وهي حمراء حَرَجَف
وجاءت بصراً كأن صقيعه

٢ خلال البيوت والمنازل كُرسف
تبيت اماء الحي تطهى قدورنا ،

٣ ويأوي الينا الأشعث المتجرّف
ويفتخر الشنفرى بغزوته في ليلة مظلمة باردة المطر وعودته قبل الصباح :

دعست على غطش وبغش وصحبتى

٤ سعار وارزيز ووجر وافكل
فأيمت نسوانا وأيمت الدة

وعدت كما أبدأت والليل أليل

وهكذا كان لفصل الأمطار على حالتيه من خصب وجفاف أثر بليغ في الشعر
الجاهلي حتى أصبح الماء وما يتصل به من صفات واستعارات خاصة يتميز بها أدب
العرب اجمالاً ، ويطفو على غمر من التعابير رجراج والفضل في ذلك كله لظماً
الصحراء .

١) السماحيق : القطع الرقاق من الغيم ، وقطع الثرب ، وهو شحم رقيق يفشي الكرش والامعاء .
حمراء : شديدة . الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

٢) الصراد : الغيم الرقيق لا ماء فيه .

٣) الاشعث : المغبر الرأس المتلبد الشعر لبعده عنده بال غسل . المتجرّف : الهزيل المضطرب .

٤) الغطش : الظلمة . البغش : المطر الخفيف . السعار : حر يجده الانسان من شدة الجوع .
الارزيز : جمود من شدة البرد . الوجر : الخوف . الافكل : الرعدة .

المراجع :
القرآن

الشعر الجاهلي : المعلقات : الفضليات . دواوين الشعراء المذكورين . ديوان الحماسة لابي تمام .
الالوسي : بلوغ الارب .

الشعراء الفرسان

حروب العرب وغزواتهم :

كان للعرب حروب كثيرة ، أو هي غزوات غير منظمة ، يجعلون من أيامها مادة لفخرهم واخزاء اعدائهم . وكثيرا ما كانت تقع من أجل النهب والسلب ، او مزاحمة على الماء والكلاء ، ومنها ما كان يحدث لاسباب تافهة تعظمها عنجهية البدوي كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة ، وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار . وحرب داحس والغبراء التي أفضى اليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين . وقلما وقعت حرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار بين الفرس وبني بكر ، وكحروب اليمن والاحباش . وانما كانت حروبهم في جملتها داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة . واذا خرجوا بها من شبه جزيرتهم ، فالى تخوم الشام والعراق ليتقاتلوا في سبيل كسرى وقيصر .

وهذه الحروب ، على كثرتها ، لم تكن تفجع البدو بالعدد الجرم من الضحايا ، لان معظمها قائم على النهب والفرار بالغنيمة ، حتى أن حرب البسوس التي تعاود القتال فيها بنو بكر وتغلب اربعين سنة لم يقتل فيها عدد يستحق الذكر . فقد كان البدوي يتحامى القتل جهده ، لان تقاليدهم تقضي بأخذ الثأر او الديات الثقيلة ، وربما لا تغسل الديات الاحقاد لما في قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم انه اذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره ، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة والصدىء ، فلا يزال يصيح : اسقوني اسقوني حتى يقتل القاتل او أحد أقاربه . قال ذو الاصبغ العدواني :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي ،

أضربك حتى تقول الهامة : اسقوني

فشرية الثأر ، كما يسميها الأب لانس ، خففت من حوادث القتل اذ جعلت الدم يدعو الدم ، وفرضت على الموتور أن يحرم على نفسه احب الاشياء اليه كالنساء والخمر والعسل والطيب ، لا تحل له أو يأخذ بثأره . قال تأبط شرا :

حلّت لي الخمر وكانت حراما ،
وبلأبي ، ما أمتت ، ستحلّ

ولم تكن جيوشهم منظمة بل اشتاتا يقودها سيد القبيلة ، ويقوم على رأس كل فصيلة قائد يقال له المنكب يأمر على خمسة عرفاء . والعريف يأمر على نفر من الرجال . ومن عادة القبيلة ان تشترك كلها في الحرب للدفاع عن المال والنساء والاولاد . والبدوي لا يهب في القتال الا اذا خشي ان يستولي العدو على أهله وماله وولده .

أما إذا غزا فإيما هو يطلب الغنيمة ، فان فاتته طلب الهرب . ولذلك كان الفر في حروبهم ملازما للكر ، وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات . ولا يستحي أشد فرسانهم بطشا ان يحدثنا عن فراره . قال عمرو بن معدي كرب :

ولقد اجمع رجلي بها حذر الموت واني لفرور

وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والعصا والمجن . ويلبس فرسانهم الدروع من زرد او جلد ، والمغافر على الرؤوس . وكانوا يرفعون الرايات وربما اتخذوها من عمام ساداتهم . ويتفنون بالشعر ويرتجزون ليثوا الحماسة في الصدور . فاذا تم لهم النصر عادوا بالاسلاب والسبايا فاقسموها بينهم ، ويعطى الرئيس ربع الغنيمة . وأما الأسرى فمصيرهم الى القتل أو يقدموا الفداء ، واذا اطلقوهم جزوا نواصيهم ، وحفظوها في كنائهم لايام المفاخرات . قال الحطيئة :

قد ناضلوك فسلوا من كنائهم

مجدا تليدا ، ونبلا غير انكاس

وعرفت حروبهم بالأيام ، لان المعركة لا تطول في الغالب غير يوم واحد ، فاما ان تنتهي بانتصار احد الفريقين وفرار الآخر ، واما أن يفصل بينهم الليل فيفترقوا تاركين القتال الى يوم آخر يعدون له العدة ، ويتسرحون الفرصة لمباغته

اعدائهم على حين غرة . وكانوا يسمون يومهم باسم المكان الذي تقع فيه الواقعة كيوم ذي قار ، ويوم اللدى ، ويوم الذنائب .

وفي هذه الحروب تبين منزلة الشاعر الجاهلي ولا سيما الشاعر الفارس . فان عصبية القبيلة تقضي على كل فرد أن يدافع عن قبيلته بما في وسعه . فاتجهت مهمة الشاعر الى الفخر بقبيلته والاشادة بايامها وانتصاراتها . والظعن على اعدائها . ويتسع عليه مجال الفخر والحماسة اذا كان من السادات والفرسان . وشعراء الجاهلية في الجملة كانوا أهل نخوة وغزوات لاضطرارهم الى الدفاع في ارض مفتوحة للغزوا لا تحميها اسوارا ولا حصون ، وثم لاضطرارهم الى الكفاح من أجل الرزق وتأمين الحياة في أرض بخيلة قليلة الموارد لا تضمن لهم العيش الا اذا غزوا وظفروا وعادوا بالاسلاب والغنائم . فجاء الشعر الحماسي أوسع الابواب الجاهلية واسماها نفسا ، يمثل أصدق تمثيل حياة البدو وتقاليدهم واعدائهم ، وسيوضح ذلك جليا في الدراسات التالية .

آداب الفروسية وصفاتها :

لا نطمع في أن نجعل من آداب الفروسية الجاهلية نظما دينية او اجتماعية مخطوطة المعالم ، مرسومة الاصول والفروع ، توأصفت على مراعاتها فئات متألفة اصطنعت من أهل النبل والشرف للذود عن حرمة الدين والارض وما اليهما من الحرمات ، فعلينا من أجل ذلك أن ننتظر القرن التاسع أو ما بعده من القرون الوسطى لنشاهد الفروسية المسيحية في أوروبا والفروسية الاسلامية في الاندلس والشرق تتواصى بها جماعات منظمة وضعت لها الشروط والقوانين . فالفروسية العربية في جاهليتها لم تكن مؤسسة دينية ولا اجتماعية ، وانما كانت فضيلة خلقية تنتمي الى الافراد لا الى الجماعات . تعزز بالعبيد والصعاليك كما تعزز بالاشراف وذوي اليسار ، وليس لها من الشرائع الا ما قضى به العرف والتقليد . وخلق بالجاهلي ، على فرديته ، الا ينشئ للفروسية نظاما اجتماعيا ، وعلى انانيته واعتماده بنفسه ، أن يجررها من رق الطبقات ، وعلى فطرته أن يعدل بها عن القوانين المقررة الى ما جرت به العادة ، وتعارفت عليه الاخلاق . فكأن للفروسية آداب متوارثة يراها البدوي بطبيعته لا يحتاج الى رسوم موضوعة ، ولا يرتبط بجماعة منظمة الا

ما كان من عصبية القبيلة ومنفعتها المشتركة بينه وبين ابناء عمه .

والفروسية العربية في آدابها الماثورة تعكس صورا متناقضة محمودة مذمومة ،
لأنها كالفروسية المنظمة في القرون المتوسطة تشتمل على العيوب والفضائل .

ويدلنا ظاهر الاشتقاق اللغوي ان اولى خصال الفروسية ان يكون الفارس بارعا في ركوب الخيل ، حاذقا أمورها واحوالها . ولدينا من أشعار الفرسان واخبارهم ما يطلعنا على مدى معرفتهم بصفات الجياد الكريمة ، ومهارتهم في اعتلائها ، وادارة اعنتها ، والتقلب على ظهورها ، حتى أن الصعاليك كانوا يجاربون راكبين ، وحسبنا ان نذكر أمراً القيس وما في شعره من صفات الخيول المطهمة لنعلم مبلغ عناية الفرسان بها ونطلع على ما يستحب في خلقها وشياتها .

وبلغ حبهم للخيول انهم جعلوا مرابطها قرب العيال اكراما لها ، وحرصا عليها ، وسموها المقربات : قال الحارث بن عباد البشكري في حرب البسوس :

قرباً مربوط النعامة مني لاعتناق الكفاة يوم القتال

وأطلقوا عليها احسن الاسماء والنعوت كالجواد والمطهم والسابح والطرف والهيكل . وربما فضل الواحد منهم فرسه على زوجته وأثره بالعناية دونها ، فيوقع الغيرة احيانا في نفسها ، فتتحى عليه باللائمة كما لامت عنترة زوج له من بني بجيلة حين رآته يوثر مهره عليها ، ويسقيه اللبن قبل أن يسقيها فقال لها عنترة :

لا تذكرني مهري وما اطعمته

فيكون جلدك مثل جلد الاجرب

ان الرجال لهم اليك وسيلة ،

أن يأخذوك تكحلي وتحضبي

وانا امرؤ أن يأخذوني عنوة ،

اقرن الى شر الركاب وأجنب

ويحمد من الفارس ان ينزو على جواده نزوا دون أن يضع رجله في الركاب ويعتمد على يديه . قيل ان عمر بن الخطاب كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليمنى ، وييده اليسرى اذن فرسه اليسرى ، ثم يجمع نفسه ويثب فكأنما خلق على ظهر

فرسه . واشتهر ربيعة بن المقدم بخفة صعوده ونزوله وضروب انقلابه والتوائه .
وشرط الفروسية لا يقتصر على شؤون الخيل وحدها بل يتطلب معها
الشجاعة والصبر وحسن البلاء . قال عمرو بن الاطنابة الخزرجي :

وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مكارم صالحات
وأحمي بعد عن عرض صحيح

واوصى علي بن أبي طالب أصحابه يوم صفين فقال : « عضوا على النواجذ
من الأضراس ، فانه أنبي للسيوف عن الهام . » وعض النواجذ كناية عن الصبر في
القتال . ويريد بذلك أن الصبر أنجي للمحارب من الفشل .

ويستقبح من الفرسان اذا خاضوا معركة ان ينازع بعضهم بعضا ويكثروا
الصياح والجلبة . روي أن عائشة سمعت منازعة اصحابها وكثرة صياحهم يعصم
الحبل فقالت : « المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل . . . »

غير انهم لم ينكروا على الفارس أن يفرع من الحرب ، فتسامحوا بفرع القلب
لا فرع الرأس والرجلين . قال عمرو بن معدي كرب : « الفرعات ثلاث ، فمن
كانت فرعته في رجله ، فذلك الذي لا تقله رجلاه . ومن كانت فرعته في رأسه ،
فذلك الذي يفر عن أبويه . ومن كانت فرعته في قلبه ، فذلك الذي يقاتل . . .
ومنه قوله :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها

جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت الي النفس اول مرة ،

فردت على مكر وهلها ، فاستقرت

واجازوا الفرار من الموت حين لا ينفع الثبات ، ولكنهم يكرهون الفرار عن

(١) جشأت : جاشت من الفرع

الاهل والاموال . وكان عمرو بن معدي كرب ، وهو احد الابطال المعدودين ،
أسرع الناس الى الهرب اذا لم يحمد الصبر ، لأن النجاة في مثل هذه الحال تعد من
صدق البصر وحسن التدبير ، وهما خلقان ينبغي للفارس أن يتصف بهما ليستحق
قيادة الجيش وادارة رحى القتال . قال عمرو :

ولقد أجمع رجلي بها حذر الموت ، وانني لفرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هيرير
كل ما ذلك مني خلق وبكل أنا في الروع جدير

ويظهر أن عمرا كان يقيس المخاطر بمقياس نفسه وشعورها بالخطر ، فهو في
اضطراب مستمر بين الاقدام والاحجام . وهذا الاضطراب خلق مطبوع فيه كما
يخبرنا بشعره . وقد يكون اضطرابه هذا من الاسباب التي جعلته غير صالح لقيادة
الجيوش في فتوح الاسلام على ما له من قوة وشجاعة وخبرة بانواع السلاح وضروب
القتال .

وكانت بنو عيس تحمل اذا حمل عنترة ، وتحجم اذا أحجم ويشير الى ذلك
بقوله :

في حومة الحرب التي لا تشتكي
غمراتها الابطال غير تغمغم
اذ يتقون بي الاسنة لم أحم
عنها ، ولكنني تضايق مقدمي

وعلى الفارس ان يكون خبيرا بأنواع السلاح يحسن استعمالها جميعا ، حتى
القوس التي تأتي في الدرجة بعد السيف والرمح يجعلها عمر بن الخطاب ضرورية
للفرسان ضرورة خفة الركوب . فيقول : « لن تحور قوى ما كان صاحبها ينزع
وينزو » . اي ينزع في القوس ، وذلك أن يمدها ويجذب وترها ، وينزو على الخيل
من غير استعانة بالكرب . واوصاف السيوف والرماح والقسي كثيرة في الشعر
الجاهلي .

ومن محاسن الفروسية ان تقترن بالنجدة ، فيقال فارس نجيد ، وهو الذي يسرع على سماع الصوت الى اغائة المستجير الخائف . قال طرفه :

اذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلعت انني
عنيت فلم اكسل ولم أتبلد

وكثيرا ما كان الفرسان يلقون بأنفسهم في المهالك ويشعلون نيران الحرب لانقاذ الجار ودفع المذلة عنه ، فحرب البسوس حدثت من أجل ناقة وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار . والحارث بن ظالم المري فتك بشرحبييل طفل النعمان انتقاما لجاراته بعدما استنقذهن واولادهن من الأسر . وفرهاربا مشتفي النفس يخاطب النعمان بقوله :

حسبت ابا قابوس انك سالم
ولما تصب ذلا ، وأنفك راغم
فان تك اذواد أصبن وصيبة
فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم
علوت بذى الحيات مفرق رأسه
وهل يركب المكروه الا الاكارم

ونحن وان كنا نستنكر اليوم أن يقتل انسان من أجل ناقة ، أو يسفك دم طفل انتقاما من أبيه ، فلا ينبغي أن ننسى حقيقة الفروسية الجاهلية ، فهي نسيج عصرها ، وفيها العيوب والفضائل كما أشرنا .

ويجمل بالفارس أن يكون بعيد الغارات يسلك القفار الموحشة ، ويقطع المغاور المجهولة ، ويغزو الاحياء المتناثية ، ويعود غائما كاسبا لا يخشى لحاقا ولا ضياعا . وكان عمرو بن معدي كرب يقول عن السليك بن السلوكه : هو بعيد الغارة كالليث الضاري ، لأن هذا الفارس الصعلوك كان يغير على اليمن مبتعدا عن ديار المضرية . لا يبالي ان يكون وحيدا في أرض نائية غريبة ، فينيخ على القبائل القحطانية غازيا ناهبا ، ثم يعود بغنيمته يقطع المسافات البعيدة كالليث الظافر بفريسته . ومن ذلك قوله :

بكى صرد لما رأي الحيّ أعرضت
مهامة رمل دونهم وسهوب

فقلت له : لا تبك عينك إنها
قضية ما يقضى لها فتؤوب
سيكفيك فقد الحي لحم مغرض
وماء قدور في الجنان مشوب

ويعتز الفارس النجيد ان يسير بظعينة في الصحراء متحدياً من يريد أن يغلبه
عليها ، واثقاً من نفسه بحمايتها ، كما سار ربيعة بن المكدم وأردى الفارس بعد
الفارس دفاعاً عنها ، حتى إنه حمى ظعينته حياً وميتاً .

والمرأة لها صلة وثيقة بالفروسية العربية ، فان فرسان الجاهلية تعودوا ان
يستهلوا قصائدهم بالنسيب جريا على الاسلوب المتبع عندهم ، فلا يتميزون عن
غيرهم من بقية الشعراء الا اذا شرع الفارس يتغنى بذكر حبيبته في اثناء حديثه عن
غزواته وحروبه ، فيعرض عليها صوراً من مبارزاته ومعاركه شأن عنترة العبسي :

يا عبل كم من غمرة باشرتها
بالنفس ما كادت ، بعمرك ، تنجلي
فيها للدامع ، لو رأيت زهاءها
لسلوت بعد تحضب وتكحل

ونراه مستأسداً لإيهاب الموت إذا أهدق الخطر بها ، كما استمات عمرو بن
معدى كرب في الدفاع حين رأى لميس خائفة تهم بالفرار :

لما رأيت نساءنا يفحمن بالمعزاء شداً
وبدت لميس كأنها بدر السماء اذا تبدى
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

المهامة : الغارات البعيدة .

مغرض : اللحم اذا أكل طرياً .

(١) المعزاء : الارض الصلبة : يفحمن : يضربن أرجلهن بالارض طلباً للحرب .

فالحبيبة تشجع الفارس العربي ، وتحمله على الصبر والثبات ، وهي الى ذلك توحى اليه أجمل الغزل الحماسي ، ويجتمع فيه الحب والفخر وتبعث منه شواعر العاشق المفتون مؤتلفة من فضائل الفارس النجيد . وجههم متعفف على الغالب لا ينحدر بصاحبه الى ذكر الفواحش كما انحدر بامرئ القيس وامثاله المتحضرين ، ولا يرفع المرأة الى أقداس الروحانية ، وانما هو حب سيطرت عليه الحواس ، وان عفت الفاظه ومعانيه .

والعفة من الآداب التي تحمدها الفروسية العربية ، ولا تقصرها على الحبيبة وحدها ، بل تقضي على الفارس ان يحسن سلوكه بين نساء القبيلة ولا سيما جاراته . وكان عترة يغض طرفه ما بدت جارته :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ، حتى يوارى جارتي مأوها
وحاتم الطائي يتعهدا بالعطايا في غياب زوجها ولا يدخل خبائها :

وما تشكيني جارتي ، غير أنها
إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيلفها خيرى ويرجع بعلها
اليها ، ولم يقصر عليّ ستورها

الا أنه لا ينكر على الفارس أن يستمتع بسبية تقع في يده أو بامرأة غريبة يسوقها الحظ اليه .

ومن فضائل الفروسية السخاء والحلم والوفاء والفصاحة ، يدعيها السادات والاشراف ، ولا يتنازل عنها العبيد والصعاليك . فليس قيس بن عاصم اكثر اعتزازا بحلمه من عترة ، ولا حاتم الطائي حاجبا بجوده جود عروة بن الورد .

بيد أن الفروسية الجاهلية لا تخلو من العيوب والنقائص كما أشرنا . فالفرسان يشيدون بذكر المرأة ويستوحون منها الحب والحماسة ، ولكنهم لا يرفعون لها قدرا ، ولا يوقرون جنسها ، فظلت مضعوفة الجانب مهیضة الجناح ، يساء بها

الظن ، وترمى بالغدر والخيانة ، وربما دفنوها حية تشاؤما بها ، أو تخلصا من عارها ، ورأينا أن العفة عندهم لا تتجاوز الجارة وابنة العم ، وقد تكون الأولى أقدس حرمة من الثانية . وهم على تمدحهم بالحلم لا يبتعدون به عن أبناء العشيرة ، ولا سيما ذوي القلة منهم . فحاتم الطائي يفاخر بحلمه على ابن عمه ما دام أخوته بعيدا عنه ، أو اذا كانوا قد هلكوا :

ولا ظلم ابن العم ان كان أخوتي
شهودا ، وقد أودى بأخوته الدهر

شعر الحماسة والفخر :

كانت الحياة الجاهلية تفرض على أبنائها أدب الفروسية وتقديس البطولة ، لما هم عليه من التنافس القبلي ومن التعرض المستمر لان يكونوا غزاة أو مغزوين ، مترحلين في طلب الماء والكلاء ، متصعلكين مشردين في البراري المخيفة المقفرة . فجاء شعرهم حافلا بذكر حروبهم وأمجادهم ، ووصف ما يلاقون من الأهوال والمصاعب في قطع المغاور وطلب المعاش وحماية الأهل والمال . يستوي في ذلك الغني والفقير ، السيد والصلعوك ، كلهم معتد بنفسه ، عزيز الجانب ، متكبر فخور . فالبدوي من غريزته أناني فردي شديد التعلق بذاته ، شديد الشعور بشخصيته . وكان أن وجد في صحراء لا يصلح معظمها للعميران وبناء الحضارات ، فاقصر في مجتمعه على قبيلته الصغيرة بدلا من أن يؤلف أمة . واقتصر في وطنه على خيام ينصبها بجانب الماء والعشب ، فاذا جف مرعاه اقتلعها وترحل ينتجع بقعة غيرها . وهو في خلال اقامته وترحاله يغزو القبائل الآمنة ، ويقطع السبل ويسلب ، أو يغزى في عقر داره ، وتقطع عليه السبل ويؤخذ ما عنده . فكان الفقر وقلة خير الارض سببا لعداء مستطيل بين القبائل ، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع . فحصلت عن ذلك منافسات قبلية فتحت للشعر أبواب التفاخر بالانتصارات ، والتهاجي بالانكسارات ، وندب الأبطال المجدكين . وجعلت البدوي يجد في سلوكه الفياقي الشاسعة ، وانقضاضه على القوافل والمراعي مصادر للتمدح بشجاعته وأقدامه . فصار لا يأتي غرضا من أغراض الشعر الا استبان له فيه مادة للفخر ترضى عنها انانيته ، أو يرضى بها عصييته القبلية . فاذا نسب

بحبيته لا يرى شيئاً يغيرها به أفضل من غزواته ومعاركه ، فيعرضها امامها مباحياً بفروسيته ، فيمتزج الغزل بالحماسة ، وتصطبغ عرائس الوحي بغبار المعامع ودماء الفرسان . وإذا أصابه مكروه شكاً وتظلم ولكن دون أن يذل أو يضعف ، وإنما يتلقى المصاب بعود صليب ، وقلب جريء ، فينافس ويفاخر : ويتبجح وهو في أشد الضيق والفاقة والالام .

واتفق مؤرخو الادب ان يجعلوا الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق ، لان الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر مواقفه ، ووصف فرسه وسلاحه . وباب الفخر في الجاهلية ، وإن اتسع الى موضوعات غير الفروسية : كالنسب والسيادة والكرم والاخلاق والاصل والولد والفصاحة ، لا يخلو اصلاً عن المباهاة بالشجاعة والاقدام . ومن العبث أن نبحت عن فخر شاعر بنفسه . أو مدح شاعر لغيره ، أو رثاء شاعر لميت دون أن يكون للشجاعة القسط الراجح بحيث لا يمكن أن تفصل الفخر عن الحماسة ، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه ، ويحسن بالفروسية أن يرافقتها شرف المحتد ومكارم الاخلاق ، حتى ان المضعوفين في نسبهم يدافعون عنه أنبل دفاع ، كما دافع عنترة عن نسبه لأمه .

ولا يرضى أحد الصعاليك كالشغرى والسليك أن يغمز في حميد صفاته . والفخر يظل ناقصاً ، منها يكن عليه الجاهلي من الشرف والفضائل ، ان لم تتمه صفة الشجاعة والفروسية . فحاتم الطائي الذي عرف بالشرف والجود وطيب الخلال لا يقنع بجميع هذه الصفات ما لم يضيف إليها صفة البطولة التي يخصها بجانب كبير من أشعاره . والمدوح لا يرتاح إلى أقوال مادحه إن لم يعطه حقه من الفروسية كمدح زهير لهرم بن سنان ، والنابعة لبني غسان . وهكذا الرثاء لا يكون وقعه ألياً في النفوس إذا سكت عن نذب الميت بذكر مشاهدته في الحروب ، وذوده عن النساء والأموال . وفي رثاء المهلهل لأخيه كليب ، والخنساء لأخيها صخر خير مثال لبيكاء الشاعر الجاهلي على الميت . وهذا طبيعي في أرض كان أهلها لم يزالوا في طور البداوة والهمجية ، منصرفين إلى الكفاح من أجل الحياة لفقدهم وقحط صحرائهم . فكل واحد منهم مضطر إلى الاعتماد على قوته ليدافع عن نفسه ، ويضمن رزقه ، ويرد غائلة عدوه ، وينازع الحيوانات الضاربة التي تهاجمه في نزوله وسفده . وكل واحد منهم يعلم أن الحق لا يحصل له إلا بشدة بأسه ، فليس

في مجتمعهم القبلي نظم وقوانين تكفل بحقوق الأفراد والجماعات إلا ما جرى عليه العرف من إجلال القوة الشخصية والتسليم لها ، أعلى حق كانت أم على باطل . وقد وجدوا في أوطان مفتوحة الأبواب لكل عدو مغير لا تملك من الحصون والأسوار غير خيام مضروبة ، فأصبح من المحتم على البدوي أن يظل متأهباً للحرب في لقاء أو بيات ، لأن الغزو عندهم لا غنى عنه فهو من قوام حياتهم . ولهذا جعل ابن خلدون الشجاعة عنصراً ضرورياً في أبناء البادية لتعرضهم الدائم للغارة والدفاع . فلا عجب أن نراهم يقدسون الفروسية ، ويعتبرونها صفة لازمة لشرف السيادة . فربما تساهل العربي في بعض الفضائل التي يريد أن يكون السيد متحلياً بها كالغنى والكرم والحلم . ولكنه يأبى التساهل في فضيلة الفروسية . فقد ذكر الرواة أن العرب سودوا الفقير والبخيل والظالم غير أنهم لم يذكروا أن جباناً ساد يوماً بني قومه . فعامر بن طفيل كان بخيلاً قليل العطاء ، وكان ظالماً جافي الطباع ، ومع ذلك ارتضت بنو عامر بسيادته لشجاعته وإقدامه . ولما علمت أنه استأسر لزيد الخيل دون قتال ، فجر هذا ناصيته وأطلق سراحه ، أنبته وأنكرت سيادته ، ولم تعد إلى الاعتراف بها إلا مكرهة بعد لأي .

وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية كما قدمنا ، وأخصها فضيلة الفروسية حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر مواقفه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه ، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها ، ويلقي بنفسه في مهالكها ، فترى النهار حالكاً كالليل لانعقاد الغبار ، والخيل عابسة الوجوه متضايقة من وقع الرماح ، والدماء تتدفق من الجراح تدفق الماء من أفواه القرب ، والفوارس مكشرة الشفاه بادية النواجذ تتصادم وتتلاحم ويحرض بعضها بعضاً . ويخص الفارس جواده بالتصوير الدقيق ويخرجه فروراً مخضباً بالدم فعل عنترة وعامر بن طفيل .

قال عنترة :

فازدرّ من وقع القنا فزجرته

فشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقال عامر

إذا ازدر من وقع الرماح زجرته
وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدبر

ولكن عامراً لم يبلغ مبلغ عنترة في جمال التصوير . فاسود بني عبس رفع جواده إلى درجة الشعور الإنساني في قوله انه شكاه إليه . وكانت شكواه عبرة تترقق في عينيه ، وحممة تنبعث من صدره . على حين أن جواد ابن الطفيل لم تظهر له نفسية ، ولا بدت منه إشارة رضى أو نفور غير ازدراره من وقع الرماح ، وهذا شيء يصدر عن الحيوان كما يصدر عن الإنسان .

ويحدث الشاعر الفارس عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم ، فلا يخلو حديثه عن تكثر أو غلو . والتكثر والغلو من خصائص شعر الفروسية ، فإن الموقعة الصغيرة تبدو ملحمة كبيرة ، والعدد القليل يجر جيشاً عرمرماً ، ونفيراً من القتلى يعد بالمشات والألوف . على أن غلوهم لم يأت مستقبحاً وهو وليد العاطفة المتحمسة ، تجمله قريباً إلى النفس ، والفطرة الساذجة ، تمسحه بجهاها الجذاب . يخالف الحقيقة ، ويصدق في شعوره الفني ، يجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدفق ، لا يهبئه العقل في يقظة الفكر المتكلف .

والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي يعتمد في الأكثر على الوصف ، وفي الأقل على القصص . وهو في كلا الحالين يؤثر الإيجاز على التطويل ، ويلمح الجزئيات دون الكلليات . ويتعلق بالمادة أكثر من الروح . فإذا وصف الجاهلي تناول الموصوفات جزءاً فجزءاً حتى يحيط بها أو يحيط بالجانب البارز منها . ولكنه لا يربط هذه الأجزاء بعضها ببعض ولا ينظر إليها نظراً شاملاً ليرتقي منها إلى الحالة الكلية الجامعة فتبقى الأجزاء متفاصلة ، مستقلة بأبياتها بحيث يسهل معها الحذف والتقديم والتأخير . ويكتفي بالتعبير الموجز عن خواطره فتأتي أوصافه لمحات خاطفة لا اتباع ولا تفصيل . فلو اراد أن يصف معركة اجترأ ببضعة أبيات ترينا جواده وسيفه ورمحه وبطشه بالأعداء ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويحاتها .

غير اننا لا نخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الواقعة . فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين ، وكيف انتظم الجيشان ، وأين وقف الفرسان ،

وأين وقف الرجالة ، وكيف تم الهجوم والالتحام . ولا تسمع من الأصوات إلا غماغم يختلط فيها وقع السلاح ، وصياح الفرسان ، وحممة الجياد ، ودققة الخوافر . ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً ، ورمحاً طويلاً ودرعاً سابعاً . وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق في أوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت الفارس المقاتل . على أن صورة الفارس لا تظهر في الغالب جلية ، بل يتركها غامضة مغمشة . ويعطينا المعركة على الإجمال تهاويل مقطعة الخطوط والأوصال ، لا يتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة .

والوصف عنده لا يتعدى الطبيعة ومرثياتها ، ولا يرتفع بها عن منزلتها إلا نادراً . فجواد عنترة في شكواه وتألمه صورة تكاد تكون فريدة في روحانيتها ، وارتفاع الحيوان بها إلى درجة الانسانية . وليس له اليد الطولى في استجلاء أسرار النفس ، وتفهم أهوائها وحركاتها ، فجاءت نفسيات الفرسان كتصاويرهم الخارجية يتغشاها سحب من الإبهام . فبراعته في الوصف لا تتجاوز النقل عن الطبيعة في الجملة ، على شيء من الأحكام والتهديب ، لأن البدوي له عين متنبهة لالتقاط المرثيات ، ومخيلة مصورة تحسن تقليد الأشياء ، وليس له قوة الخيال المبدع الذي يختزن المحسوسات ويجمع بعضها إلى بعض ثم يجللها ويركبها فيخترعها صوراً جديدة ، أو يخلقها خلقاً مبتكراً إلا في القليل المحدود . ومع ذلك فهو يجيد الوصف ويتقنه أكثر مما يجيد القصص ، فان القصة في الشعر الجاهلي ضعيفة الفن لاقتصارها على الخبر البسيط والسر السريع كما يفعل عنترة في تحدته عن مبارزاته ، وتأبط شراً في حكاياته عن الغيلان .

ولا جرم أن الإيجاز الذي درج عليه الجاهلي كان يحول بينه وبين الإسهام في اخباره . وهذا الإيجاز يعود في معظمه على قصر النفس ، ونزارة ينابيع الخيال المبدع ، فلم يتسنى له عمل الملاحم والقصص الطويلة ، وقد فصلنا ذلك في كلامنا على خصائص الشعر الجاهلي .

ماخوذ هذا البحث من دواوين الشعراء . وأخبار الفرسان في متفرقات كتب الأدب . كالأغاني والعقد الفريد والشعراء الفرسان والعمدة لابن رثيق والبيان والتبيين للجاحظ وبلوغ الأدب للألوسي وشعراء النصرانية لشيخو .

السادات والأشراف من الفرسان :

كان العرب في استقلالهم القبلي ينكرون سيطرة الغريب عليهم ، ولا يقبلونها إلا على كره ، حتى إذا أصابوا فرصة انتفضوا عليه وأزالوه كما انتفضت بنو أسد على الملك الكندي ، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند . ولكنهم يدعونون لسيد منهم إذا رأوا في سيادته خيراً لهم ، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملم العصيب .

ولا تستقر السيادة في بيت واحد لأنانية البدوي ونزوعه إلى المنافسة ، فكانت تنتقل في القبيلة من بيت إلى آخر . وقلما تعددت في بيت واحد ، فكان تعددها من مفاخرهم . وأشرف البيوت عندهم بيت تنابعت فيه رئاسة آباء ثلاثة ، ثم اتصلت بالرابع ، فيسمى الكامل ، كبيت خدينة بن بدر في بني ذبيان ، وبيت ذي اليمين في بني شيبان .

والبدوي في عنجهيته وحبه للرئاسة لا يخضع لمساوله ، وإنما يخضع لمن هو أقوى منه ، وينبغي أن يتحلى الرئيس بصفات محمودة عندهم لتحقيق له السيادة في قبيلته . وأجل هذه الصفات الغنى والكرم والحلم والشجاعة والفصاحة . وإذا قالوا : سيد معمم ، أرادوا أن كل جناية في العشيرة معصوبة برأسه . قال دريد بن الصمة :

عاري الأشاجع ، معصوب بلمته

أمر الزعامة ، في عرنيته شحم

الأشاجع : أصول الأصابع التي تنصل بعصب طاهر الكف .

عاري الأشاجع : قليل اللحم .

على أن هذه الصفات يندر أن تجتمع كلها في سيد واحد ، بل يندر أن يخلو الرؤساء من عيوب الرئاسة . روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « ما رأيت شيئاً يمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وماطر شارباه ، ودخل دار الندوة وما استوت لحيته . ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلاً عاهراً وكان سيداً ، والظلم يمنع من السؤدد ، وكان كليب وائل ظالماً ، والحمق يمنع السؤدد ، وكان عيينة بن حصن أحمق سيداً ، ولم يكن بالبصرة من عشيرته وجلان ، والفقر يمنع من السؤدد ، وكان عتبة بن ربيعة مملقاً ، وكان سيداً .

وتنقل السيادة في القبيلة جعل الأشراف كثيراً عددهم ، لأنه قلما خلا بيت عنها فيما أن يرجع بها أحدهم إلى أبيه أو جده ، وإما إلى بعض أعمامه أو أخواله . فكثرت مفاخراتهم بالبيوت والأنساب ، ومدحهم الشعراء بأوصاف الرئاسة . فإذا قيل فلان من سادات القبيلة عرف أنه من أشرافها وعمن وصلت إليهم السيادة بأسباب القربى ويختلف هذا عن قولهم فلان سيد القبيلة أو سيد قومه .

ومن السادات والأشراف شعراء اشتهروا بالفروسية واتسموا بأبجد صفاتها ، فاتسع عليهم باب الفخر بشجاعتهم وإقدامهم ، وذكر حروبهم وانتصاراتهم ، مع ما يتمدحون به من كرم المحتد وشرف الرئاسة وفضائلها المعروفة . ومن هؤلاء عمرو بن كلثوم ، وحاتم الطائي .

عمرو بن كلثوم:

هو سيد بني تغلب وفارسها وشاعرها ، ساد قومه في الخامسة عشرة من سنه . فخرق تقاليد العرب وآدابهم ، لأنهم كانوا لا يقبلون سيادة الفتيان . ويتفق الرواة على أوصافه كما تظهر من أخباره وشعره ، فله نفس أبية متكبرة امتلأت عزة وفخراً فما تصبر على أقل ضيم يصيبها ، تجاه الأخطار ولا تبالي ذوداً عن شرفها ، هذا الشرف الذي اكتنف عمراً من كل جانب ، فكان سيد بني تغلب ، من أعظم قبائل العرب وأكثرها عدداً وإياماً ومناقب حتى قيل فيها : لو تأخر الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس . وله من فرسانها وساداتها آباء وأجداد نطق التاريخ بآثرهم وبطولتهم . وحسبه منهم أبوه كلثوم فارس تغلب ، والمهلهل جده لأمه ليلي ، فارس ربيعة ، وعمر كليب صاحب الحمى ، وملك ربيعة ومضر ، وقاندهم يوم خزازى إلى النصر والتحرر من سيطرة اليمن .

وأضاف إلى هذه الأحساب التليدة مناقب عالية البنيان توازيها فيما تنخفض عنها ، وإن كانت لا تسمو عليها . وانحدر إليه الشعر من جده المهلهل بروحه وهيكله ، فأخرجه على طريقته فخراً وحماسة ، مندفع العاطفة حتى الغلو المتطرف ، قليلاً فيه عمل الخيال التصويري . وأقل منه عمل التفكير . ليس إلا شعوراً يتدفق ، وحمية تشتعل ، ونفساً تثور فتخطى الحواجز والحدود ، مرتدية من الألفاظ ثوباً نسجته على هواها ، لم تمتد إليها يد صناع فتشد سداه ولحمته ، وتحكم وشيه وتخطيطه . فخرج على سجيته من حسن ورديء ، عصبي المزاج في تركيبه . تدافعت حروفه تدافع الأمواج الجائشة ، فيها صخب ولين ، وعود وتكرار ، وتفكك واتصال . أكثره في الفخر ، وأقله في المدح والهجاء . افتخر ممتلئ النفس حماسة ، وهجاً ناثراً منتقماً ، ومدح شاكراً لا متكسباً . وليس من غرضنا أن

نبحث هنا في مدحه وهجائه ، وإنما موضوعنا أن نظهر تلك الشخصية البدوية في كبرها واعتدادها ، في تهورها وغليان شاعرها . فالفخر عند ابن كلثوم يخرج صورة جليلة تبرز نفسية سيد عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية ، ويتكلم بأنا ونحن ، أناياً بصيغة المفرد ، أميراً بصيغة الجمع . مناقبه غنية في ذاته ، ومناقب قومه مردودة إليه . يبذل المال ولا يبالي . فإذا لأمته العاذلة وحذرتة من العوز ، أراها مهرا يكر على الأحياء يغزو ويغنم :

يخلف المال فلا تستئيسي

كري المهر على الحيّ الحلال

والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرع أبواب الفخر والمدح والغزل ، يلوم المفتخر والمدح والعاشق على الإتلاف والتبذير ، والقاء النفس في المخاطر ، وعلى التماذي في الصبا والغواية ، فيرده الأول والثاني ، ويرده الثالث لا يقبلون منه نصحاً ، وفي ذلك منتهى الكرم والشجاعة والهيام . وقد رد عمرو بن كلثوم عاذلته :

لا تلوميني فاني متلف كلّ ما تحوي يميني وشيالي
وحقيق بمثله أن يردها ، فعنوان الكرم عندهم عدل ورد . ونفسه الجبارة يطيب لها أن تتحدث بأنا عن كرمها وبأسها ، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها ، وفي هذا وذاك لا تتحرج أن تغالي وتفطر في المغالاة :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر ثملاًه سفينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تحر له الجبابر ساجدينا
فإذا ملأ البر والبحر بجيوشه واساطيله ، فلعل بني تغلب كانت تخرج إلى الحرب ببضعة آلاف مقاتل ، ولعل لها بعض السفن في نهر الفرات .

وصاحبنا التغلبي لم يعرف له شعر كثير كما عرف للمهلhel ، ولكن منزلته الأدبية ، مع قلة نظمه ، أربت على منزلة جده ، فهو من شعراء الطبقة الأولى أصحاب المعلقات . ومعلقتة من الشعر القبلي الخالص بما فيها من فخر واعتداد

وتنديه بالعدو ، وإشادة بمناقب العشيرة ، فأتيج لها مكانة قومية لم تتبوأها قصيدة حتى قيل أن بني تغلب كانوا يعظمونها جداً ، ويرويه كبارهم وصغارهم . ولما كثرت رداها على الستهم غيرهم ذلك بعض بني بكر أعدائهم ، فقال :

الهي بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

ومن عادة أهل البادية أن يهجو بعضهم بعضاً بكل شيء أفرطوا في اتخاذه والعكوف عليه ، فليس يعجب أن تهجى تغلب لإقبالها على معلقة شاعرها ، وإنما العجيب ألا تكثر من روايتها والتغني بقوافيها ، وقد حملت لها خلال أبياتها آيات المجد الأثيل تباهي بها أعداءها . وإذا عرفنا عقلية القبائل البدوية وما هم عليه من التنافس المستمر ، يهون علينا أن نفهم لماذا أحرزت قصيدة ابن كلثوم تلك المنزلة القومية عند بني تغلب ، وإنما هي قيلت يوم وقف التغليبيون وأعداؤهم بنو بكر يتقاضون لدى ملك الحيرة عمرو بن هند ليحكم فيما بينهم . فكان عمرو بن كلثوم في معلقته خطيباً محامياً ينافر الخصوم ويدافع عن بني قومه . ويوم التقاضي ترجع أسبابه إلى حرب البسوس وما أورثت العشيرتين من الأضغان على ما بينهما من القربى وأصرة الأرحام ، حتى أصلح بينهما المنذر والد عمرو بن هند . وملوك الحيرة يعطفون على قبائل ربيعة ويعنون بإصلاح شؤونها لقرب منازلها من العراق ، فإنهم إذا بسطوا نفوذهم عليها استفادوا منها في حروبهم وكيد أعدائهم . ولطالما كان البكريون والتغليبيون أحلفاً لهم على الروم والغساسنة . حرص المنذر أن لا تعود القبيلتان إلى القتال بعد الصلح ، فأخذ من كل حيٍّ منهما مائة غلام رهينة ، ليثار منهم للمعتدى عليه في حالة الاعتداء .

ولما صار الملك إلى عمرو بن هند ترسم خطة أبيه في الارتهان من العشيرتين . فاتفق أن بعث ذات يوم ركباً من تغلب وبكر إلى جلي أجا وسلمى في بعض أموره ، فنزلوا في أرض لبني شيان أنساب البكرين ، فعدا بنو بكر على التغليبيين ، فأجلوهم وطلبوا ديات أبنائهم من البكرين ، فأبوا أدائها ، فاحتكموا إلى عمرو بن هند ، فقال لهم : « ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتونني بسبعين رجلاً من أشرف بكر بن وائل ، فأجعلهم في وثاق عندي ، فان كان الحق لبني تغلب

دفعتهم إليهم ، وإن لم يكن لهم حق خليت سبيلهم . « ففعلوا وتواعدوا ليوم يعينه يجتمعون فيه . فلما كان ذلك اليوم انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر أحد أشرافها النعمان بن هرم . وكان ملك الحيرة يميل إلى إنصال التغلبيين ، ويرى أن لهم الحق على بني بكر ، فجافى النعمان وأغلظ له الكلام ، فرد عليه النعمان بأشد مما قال له ، لأن البدوي لا يصبر على الإهانة ، ولا يرعى عندها حرمة سيد أو أمير . فطرده الملك من حضرته ، ووقف حينذاك عمرو بن كلثوم ، وأنشد معلقته منافراً ببني بكر ، مبالغاً في الفخر ، مندفعاً مع العاطفة في التبجح على ملك العراق ، مندداً به ، مهدداً إياه . فبدلاً من أن يستغل عطفه على قومه ، فيكسب القضية عنده ، أثار حفيظته بتهوره ، فحكم هذا للبكرين بعد أن سمع قصيدة شاعرهم العاقل الحارث بن حلزة . فقد استطاع الحارث بدهائه ومرونته أن يستميله إلى قبيلته ، ويصلح ما أفسده نزق النعمان بن هرم . وساعده على النجاح سفه ابن كلثوم وتطاوله إلى مقام عمرو بن هند مذكراً إياه بعصيانهم على ملوك الحيرة :

أبا هند ، فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد رويانا

وأيام لنا غرّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وفيها يقول :

حُديا الناس كلهم جميعا مقارعة بنيهم عن بنينا

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وإذا قرأنا المعلقة وقعنا على أبيات يستدل منها أنها لم تقل يوم التقاضي ، وإنما قيلت بعد مقتل عمرو بن هند . وعلى هذا تكون المعلقة قسمين نظماً في زمانين وحالين مختلفين ، في حين أن الأصمعي يزعم أنها قيلت يوم التحكيم دفعة

واحدة . فإذا عرفنا بالنقد للقسم الذي قد يظن أنه نظم بعد مقتل الملك ، لا نجد فيه إلا بيتاً واحداً يمكن أن يستأنس به كدليل أو شبه دليل ، وهو

تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لامك مقتونيا

فقوله : « متى كنا لامك مقتونيا » أي خادمين ، لا يصعب علينا أن نجد له تفسيراً في قصة ليل وهند عندما قالت الثانية للأولى : « يا ليلي ، ناوليني هذا الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . » فنطمئن إلى القول بأن المعلقة نظمت في مرحلتين . غير أن البيت الذي يتقدمه يدل على أن الشاعر يؤنب عمرو بن هند . والبدوي لا يرضى بسيادة الغريب إلا مكرهاً ، فإذا سنحت له الفرصة وثب عليه فقتله وتخلص منه . قال :

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقبلكم فيها قطينا

فبنو تغلب كما يتبين غاضبون على عمرو بن هند لأمر لاعلاقة له بحادثة الطبق . فقوله إذا في البيت التالي : « متى كنا لامك مقتونيا » يقتضي أن لا يعني في حد ذاته حادثة خاصة ، وإنما مفاده أن بني تغلب ليسوا بخدم للملوك أو لأمهاتهم ليستبد هؤلاء بهم ، ويولوا عليهم من يشاؤون . ولا نجد في بقية الأبيات التي تناول عمرو بن هند إلا تبجح ابن كلثوم واعتداده بصلابته عوده وتمرده على كل من يريد أن يستحكم فيه أو في قومه :

فان فئاتنا يا عمرو أعيث على الأعداء قبلك أن تلتينا

وليس في جميع ذلك ما ينافي قوله السابق : « لقبلكم فيها قطينا » بل هو بالأحرى تأكيد له وتبليغ . ويصح أن تكون هذه الأبيات قد قيلت يوم التقاضي وأغضبت عمرو بن هند فحكم للبكرين ، كما قيلت الأبيات التي قبلها وفيها ما يشبهها :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وإذا تتبعنا المعلقة إلى آخرها بعد الأبيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند

نرى أنها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي . فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين ، كما تقتضي شروط المفاخرة والتحكم في العصر الجاهلي ، مما يؤيد أن المعلقة قيلت في واقعة واحدة كما روى الأصمعي .

وهذا لا يعني اننا نحاول أن نلقي غشاءً من الشك على حادثة الطُرف ومقتل عمرو بن هند ، فالرواة متفقون على إثباتها ، والشعر القديم نفسه صرح بتأييدها . فقد ذكرها افنون بن حريم التغلبي مفتخراً :

لعمرك ، ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم ليلى أمه بموقف
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنّف
وجلله عمرو على الرأس ضربة
بذي شطب صافي الحديد روتق
وأشار إليها الفرزدق مادحاً بني تغلب بقوله :

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة
عمرا ، وهم قسطوا على النعمان

فمقتل ملك العراق لا يتناوله الشك بترجح أدلة الإثبات وإنما يعترينا الشك في أن تكون المعلقة نظمت في حادثتين متباينتين استناداً إلى بيت من الشعر يتهافت عنده اليقين .

ولم يكن مقتل عمرو بن هند بالشيء اليسير على بني تغلب ، فقد أسرهم المنذر الرابع أخو الملك القتيل حرباً عواناً ، وما زال يرميهم بالواقعة تلو الواقعة ، ويغير عليهم برجاله وأحلافه ، حتى اضطروهم إلى الجلاء عن الجزيرة ، فطلبوا أرض الشام محتمين بجوار الغساسنة ، ولكن لم يطمئن لهم جانب فيها لما هم عليه من صلف وجفاء . قال ابن الأثير : خرج ملك غسان الحرث بن أبي شمر ، فمر ببني تغلب ، فلم يستقبلوه ، فاغتاظ وطلب سيدهم عمرو بن كلثوم فتوعده ، فأفضى الأمر بينهم إلى القتال ، فانهزم الغساسنة ، وقتل أخو الحرث في عدد

كبير . فقال عمرو بن كلثوم :

هلا عطفست على أخيك ، إذا دعا

بالشكل ، ويل أبيك ، يا بن أبي شمير

ولبث التغليبيون نازحين عن ديارهم حتى مات المنذر الرابع ، وقام بعده ولده النعمان أبو قابوس (٥٨٠) فرجعوا إلى الجزيرة ، فأرسل عليهم النعمان جيشاً على رأسه ابنه المنذر . فكسروهم بنو تغلب ، وقتل المنذر بن النعمان ، قتله مرة أخو عمرو بن كلثوم . وإلى هذه الحادثة يشير الفرزدق بقوله : « وهم قسطوا على النعمان . » وكذلك الأخطل التغلبي يلمح إليها وإلى مقتل عمرو بن هند إذ يقول مفتخراً على قوم جرير :

ابني كليب ، ان عمي اللذا

قتلا الملوك وفككا الأغلالا

ثم أرسل النعمان إلى عمرو بن كلثوم يتوعده ، فأخذ عمرو يهجو ، ويعيره أمه سلمى ، وكانت بنت صائغ وأخت صائغ . والبدو يحترقون الصناعات ، ويزدرون أصحابها ، ولا يحمدون الرزق إلا من السلب والغنائم ، قال عمرو :

لما الله أدنانا إلى اللؤم زلفة

والأمننا خالا ، وأعجزنا أبا

وأجدرنا أن ينفخ الكبرخاله

يصوغ القروط والشنوف يثربا

على إننا لا ندرى كيف انتهى العدا بين ملك العراق وسيد تغلب ، لأن المراجع التي بين أيدينا لا تذكر شيئاً عنه ، وإنما نعلم أن كلا الأميرين عات متكبراً لا يلين له عود .

فعمرو بن كلثوم عنده جرأة كبيرة على الملوك لما أصاب من التوفيق في قتالهم وتقتيلهم ، ووراء قبيلة كثيرة الحصى ، وتعودت مباشرة الحروب ، فلا ينتظر منه

أن يذل للنعمان . وصاحب الحيرة عظيم بمملكته وكتيبته الشهباء ودوسر ، فلا يرجى أن يفضي على أذى ابن كلثوم فيكف عنه . ولعل الأمر بقي على حاله بين المناذرة وتغلب إلى أن قتل النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وانهار من بعده عرش المناذرة .

مراجع :	
أبو الفرج الأصفهاني	: الأغانى
ابن قتيبة	: الشعر وشعراء النصرانية
ابن سلام	: طبقات الشعراء
أبو زيد القرشي	: جمهرة أشعار العرب
الزوزني	: شرح المعلقات السبع
التبريزي	: شرح المعلقات العشر
الأب شيخو	: شعراء النصرانية
فؤاد افرام البستاني	: الروائع : ٢٦
بطرس البستاني	: أدباء العرب ١

حاتم الطائي :

إذا شئت أن تعرف الفضائل الجاهلية وما فيها من مكارم الأخلاق ، فعليك بحاتم الطائي ، فإنه المثال الأعلى لخير ما يفخر به الأعرابي من حميد الصفات ، فقد اجتمعت له أشرف الخلال البدوية وأطيبها ذكراً ، وبلغ بعضها في مقداره حداً متطرفاً يرتد خائباً عنه كل منافس وطامع . فإن وجد من يجاربه أو يتقدمه في الفروسية والإقدام ، والنجدة وحسن الجوار ، والحلم والعفة ، والشعر والفصاحة ، فما كان ليجاربه أو يتقدمه أحد في ضروب السخاء وغرائب الضيافات ، حتى ضرب المثل بجوده ، ولهجت بمدحه ألسن الشعراء والكتاب في عصره وبعد عصره . وأصبح اسمه مرادفاً للكرم المتناهي يشبه به ولا يرى أفضل منه للتشبيه . ونسج أساطير السخاء على ولادته وحول قبره كما نسجت على حياته ، فاختلط الصحيح من أخباره بالموضوع ، وتلبس التاريخ بالخرافة ، وتبرجت الحقيقة بوشي الخيال . فقد طارت لحاتم شهرة في الجود لم يكن مثلها لغيره ، ورويت عنه نادرات شوارد تثير الإعجاب ، وتبعث الشهوة في النفوس لتسقط أحاديثه فاستغل الرواة نهم الناس ، فأقبلوا على إخباره يتبعونها ، ويتزيدون فيها ، بحسب تفاوت المخيلات ، وحب التزيين والاغراب ، فجعلوها قصصاً وأسحاراً ينتزه بها خاطر ، وفيها متسع لمنافع التاريخ .

فما روي عن ولادته أن أمه جاءها هاتف في المنام وهي حبلى فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك ، أم عشرة غلمة كالناس ليوث ساعة البأس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ » ففضلت حاتماً على العشرة ، فكان لها ما تمت . وهذه الرواية لا تنافي طبع أم حاتم فإنها كانت من أسخى الناس واقراهم

(١) الضعيف النذل الساط

للضيف تعطي ما تملك يدها ولا تحرص عليه مهما تكن قيمته . وطبيعي أن يكون حاتم قد اكتسب مزية الكرم منها ، فأبوه لم يعرف بالسخاء ، ومات وحاتم صغير ، فجعل الولد في حجر جده سعد بن الحشرج ، فلما كبر وفتح يده لكل طالب وطارق ، ضيق عليه جده ثم رحل عنه بأهله خوفاً على ماله . ويروى عن أمه ، واسمها عتبة بنت عفيف ، أنها تمادت في بذل المال وإتلافه ، وهي في بيت أبيها ، فاضطر اخوتها إلى الحجر عليها لثلاث تذهب بثروتها . فلا غرو أن ينشأ الابن على شيم والدته وفي حضنها ربي ، ويلبنها غذي ، ومن يدها تناول العطاء . وكان نصيب أولاده منه كنصيبه من أمه فجاؤوا مسامح وهايين ولا سيما ابنته سفانة فإنها كانت تباريه في الجود والإتلاف ، يعطيها القطعة بعد القطعة من ابله فتوزعها على الناس .

وأخبار حياته حافلة بغرائب الضيافات وأعاجيب العطايا ، تريك شخصاً فريداً في أطواره ، لا هم له إلا البذل والقرى لكل سائل وطارق . يده مبسوفة أبداً ، وإبله معقورة أو موهوبة . ناره موقدة وقدره مرفوعة ، يطعم ويعطي غير ما يطعم الناس وغير ما يعطون . فربما سخر لكل ضيف ناقة ، وربما أعطى جميع ما تملك يمينه . قيل مر به ثلاثة شعراء وهو غلام فقالوا : « يا فتى ، هل من قرى ؟ » قال : « تسألونني عن القرى وقد ترون الابل . » ثم سخر لهم ثلاثاً ، فقال له أحدهم : « إننا أردنا بالقرى اللبن ، وكانت تكفيننا ناقة إذا كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً . » فقال حاتم : « قد عرفت ، ولكني رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه . » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله . فقال حاتم : « أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل علي وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقتسموها ، فاقتسمها الثلاثة فيما بينهم ، فأصاب كل منهم تسعة وتسعين بعيراً . ويقول الرواة أن جده فارقه على أثر هذه الحادثة ، وخرج بأهله عنه محافظة على ماله ، ولذلك يخاطبه حاتم بقوله :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى ،

وودك شكل لا يوافقك شكلي

وجاء مرة رجل من البراجم فقال له : « وقعت بيني وبين قومي ديات

فاحتلمتها في مالي وأملي ، فعدمت مالي وكنت أملي ، فان تحملها عني قرب هم فرجته ، وغم كفيته ودين قضيته . « ومدحه بأبيات . فقال حاتم : « هذا مرباعي من الغارة على بني تميم ، فخذها وافراً ، فإن وفي بالحماله ، وإلا أكملتها لك . » فأخذ البرجمي المربع أي ربع الغنيمه ، وهي حصه رئيس الجيش ، وكانت مائتي بعير ما عدا النياق وأولادها . ثم زاده مائه بعير فانصرف راجعاً إلى قومه ، وقضى ما عليه من حق الدماء .

وكان حاتم إذا جن الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في مرتفع من الأرض ليصيرها من ضل طريقه فيأوي إلى منزله . وإذا كان الليل بارداً والريح عاتية ، حض غلامه على متابعة الايقاد ، ووعدته بالاعتاق إن جلبت ناره ضيفاً :

أوقد فان الليل ليل قر والريح يا موقد ربح صر

عسى يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفاً فأنت حر

ويفاخر حاتم بأن كلابه تنبح للضيف وهو بعيد لتهديه ، ولا تنبح في وجهه لأنها تعودت رؤية الضيوف . والعرب تمدح الكرام وتذم البخلاء بكلابهم . ورأى حاتم يوماً ولده يضرب كلبه له وكان يجيها لأنها تدل الضيفان على منزله ، فغضب وانهاه عليه بالسوط ، وفي ذلك يقول :

أوصيك خيراً بها فان لها عندي يدا لا أزال أحدها

تدل ضيفي علي في غلس الليل إذا النار نام موقدها

وقلما خلت أخبار حاتم في الجود والضيافة من الغرائب ، حتى لتخال هذا الطائي به مس من الجنون في كرمه لا يطيب له العيش إلا في بذل ماله وإتلافه ، ولا ينام قرير العين إلا على مرأى الضيوف حول قدوره وجفانه .

إلا أن حاتم على فضله وسخائه لم يخرج عن خلق البدوي في إثثار نفسه وإرضاء أنانيته ، فإذا أتلّف ماله مراراً وجد به على العفاة والضيفان ، فإنه كغيره

من الأعراب لا يفهم معنى للصدقة المكتومة ، والعطاء المستور . يعطي ويطعم ليقال ان حاتماً أعطى وأطعم . وقد سمعناه يقول للشعراء : « يجب أن يذكره الناس ويمدحوه ، ولا يريد أن يكون فضله خفياً . يفاخر بكرمه شأن كل جاهلي ، معتداً بنفسه ، معتزلاً بمناقبه ، فكل شعره فخر وتمدح وتعداد لمكارمه وفضائله . وهو حريص على شهرته لا يجب أن يتحدث الناس بأن حاتماً أصم أذنيه عن سماع صوت المستغيث . فسخاؤه خارق عجيب في إفراطه ، بيد أنه يتقاضى ثمنه فخراً ومدحاً ، ويلقيه جزافاً على غير روية فيصيب المحتاج وغير المحتاج . وربما جعل ماله نهبي بين الناس ليقتمسوه أمام عينيه ، فترضى كبرياء نفسه ، وتغبط أنانيته باستقبال ألفاظ الشكر واللوم ، وما يلتوهما من حسن الأحدث . واللوم يدغدغ عاطفة الجاهلي أكثر مما يدغدغها الشكر ، فقد خلق العاذلة التي لا تأتلي نصحاً له وتأنياً ، وجعلها رفيقة حياته تلومه على إسرافه في الكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والإعراض ، أو تنفيذ نصائحها ، والدفاع عن مذهبه في شيء من التفلسف وقرع الحججة بأختها : وشعر حاتم لا يخلو في أكثره من شخص هذه العاذلة المحبوبة ، وهي في الغالب زوجته فيسميها باسمها ، أو يتركها نكرة مجهولة ، تلومه على إفراطه في الجود وتبذير المال ، فيفهمها أن الكريم خير من البخيل ، فللكريم حسن الذكر إذا مات ، وإما البخيل فيتبعه سوء الثناء . ولماذا يحرص الإنسان على ماله مادام الموت راصداً ، ولا سبيل إلى الخلود في هذه الحياة ؟ أفليس الأفضل له أن يترك ذكراً طيباً يخلد بعده فتحدث به الأجيال ؟

مهلاً نوار . أقلل اللوم والعدلا
ولا تقولي لشيء فات : ما فعلا؟

ولا تقولي لمال كنت مهلكه
« مهلاً » وان كنت أعطي الأنس والخبلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة ،
إن الجواد يرى في ماله سبلا

إن البخيل إذا ما مات يتبعه
سوء الثناء ويحوي الوارث الابلا

فأصدق حديثك إن المرء يتبعه

ما كان يبني ، إذا ما نعشه حملا

ويستوقفنا قوله : « ويجوي الوارث الإيلا » فقد كان لا يرى في توريث أبنائه وإسعادهم بماله ، فإنما هو يبني لنفسه لا لغيره ، فإذا رداها في حياته ، وتركها تنفق على هواها لتكسب حسن الأحداث ، فتلك غاية ما يصبو إليه ، وليتعمس الارث والوارث بعد أن يلقي هو في غيابه القبر :

إهن في الذي تهوى التلاد فإنه

يكون إذا ما مت نها مقسما

ولا تشقين فيه فيسعد وارث

به حين تحشى اغبر الجوف مظلما

فصاحبنا فردي ممتلئ من شخصيته ، يذهب في الحياة والموت وفهم الخلود مذهب غيره من أهل الجاهلية في تلك الصحراء المستأثرة بذاتها ، والتي لا تدرك السعادة إلا في الأشياء المادية ، بعيداً عن الأغراض الروحانية ، تبتدىء بأنا ، ثم تسير بفرديتها لا لتؤلف مجتمع أمة ، بل ليف أبناء عم تدعوهم عشيرة وقبيلة . وما حاتم إلا واحد من أولئك الأعراب يحسن إحسانهم ، ويفكر بتفكيرهم ، ويتصور الأشياء كما يتصورونها . فلا نلتبس منه أن ينظر إلى الحياة غير ما ينظر إليها أبناء باديته في عصر فطري تغلبت عليه المادة ، ولكن يخلق بنا أن نحفظ له حقه من الشئائل الحسنى ، فقد كان كرمه عنوان الجود في الجاهلية ، وتخطت شهرته القرون والأحقاب حتى انتهت إلينا ، فما نزال نسمع إلى يومنا هذا مثلاً سائراً تردده العامة والخاصة : فلان أكرم من حاتم طي .

وإذا كانت فضيلة الجود أظهر شيء في حاتم لكثرة ما روي عنه من غرائب الضيافات والعطايا ، فليس من شأنها أن تحجب سائر فضائله ، وقد تحلى هذا الطائي بأجل الخلال التي يفاخر بها العربي ، ويجعلها من الصفات لسيد القبيلة ، لأن البدوي لا يعترف لغيره بالسيادة إلا إذا رأى فيه خيراً ونفعاً . فكلهم في العشيرة أبناء عم يعتزون ببيوتهم وأنسابهم حتى صعاليكهم وكلهم أنانيون معتدون

بأنفسهم ، طامحون إلى الرئاسة ، لا يتركها الواحد للآخر إلا على كره وحياء ، أو عن إقتناع تام بفضله وصلاحه . فمن اجتمع له الجود والحلم والعفة والفروسية ، والنجدة والفصاحة ، كان أحق من غيره بالشرف الرفيع . وقلما وجدت هذه الصفات مجتمعة في واحد كما وجدت في حاتم . فسلموا له السيادة عن رضى واقتناع ، فكان يفاخر بها ويرد على من يلومه في سخائه وتبذيره بقوله :

يقولون لي أهلك مالك فاقتصد

وما كنت ، لو لا ما تقولون ، سيدا

ومن محاسن السيادة عندهم أن يكون صاحبها حليماً يكره الظلم ويعفو عن السيئات . وقد اتصف حاتم بكرم أخلاقه وسعة صدره على ما به من كبر النفس وحب المفاخرة . فيما روي عنه مرة أنه هضم حق غيره أو جار على أحد سالكاً به طريق العسف ، مع أن أكثر أبناء عصره كانوا يتباهون بالظلم ، ويمدحون به ، جاعلين شعارهم : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فهذا زهير بن أبي سلمى قاضي الشعراء وحكيمهم يعتبر الظلم من الأسس التي تركز عليها الحياة الاجتماعية :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

فحاتم أحد أولئك الفرسان الذين كان الحلم أقرب إلى نفوسهم من الظلم ، وان خلا حلمهم من الرقة والتواضع ، وغلبت عليه الكبرياء والمباهاة . وكان يتجنب الإساءة لأبناء عمه لأن شرط فضيلة الحلم عندهم أن يتناول القبيلة قبل غيرها ، ولا سيما الضعيف الذي قل اخوته وأنصاره كما قال حاتم :

ولا ظلم ابن العم إن كان اخوتي

شهودا ، وقد أودى باخوته الدهر

والفتى الطائي لا يحرص حلمه بأبناء عمه بل يشمل به عدوه أحياناً ، فكان يعفو عن وحيد أمه إذا وقع في يده فلا يقتله لئلا يفجعها به . وقد اعترف له الرواة بهذه المحمودة وهو يذكرها في شعره اذ يقول :

أماوي اني ربّ واحد امه
أجرته ، فلا قتل عليه ولا أسر

وله في الحلم أقوال متفرقة تشهد بكرم خلقه ، ويمكن صرفها إلى ناحية الشمول بحيث يصح أن ينظر إلى حلمه كفضيلة إنسانية لا فضيلة قبلية ، من ذلك قوله :

واغفر عوراء الكريم إدخاره
واعرض عن ذات اللثيم تكوما

وروى الجاحظ في البيان والتبيين أن حاتماً أوصى ابنه عدياً بقوله :

« أي ابني ، ان رأيت الشر يتركك ان تركته ، فاتركه . » فأين هذا من كلام غيره في تحسين الظلم .

وكذلك العفة كانت من الفضائل التي أضيفت إلى حاتم ، وافتخر بها في شعره . وهي عندهم على أنواع ، فمنها العفة عن السؤال ، فان الحر إذا افتقر ، يصبر على الجوع ، ولا يرضى لنفسه ذل المسألة . ومنها ترك الإسلاب والغنائم عند إقتسامها لمن ينتفع بها من أبناء العشيرة . وهذا دليل الإياء والكرم والاستغناء ، ودليل الفروسية يعتمد صاحبها على نفسه في تحصيل معاشه بغزوات يباشرها منفرداً عن أهله ، فنسمع عنتره يقول لعلبة :

يخبرك من شهد الوقعة إنسي
أغشى الوغى ، وأعف عند المغنم

وقد تكون هذه العفة نظرية أكثر منها عملية ، يدعيها البدوي مفاخراً ، مع أنه ، في الحقيقة ، قلما نزل عن نصيبه من الغنيمة إلا مكرهاً ، أو واهباً إياه تكوماً في بعض الأحوال كما وهب حاتم مرباعه للبرجمي الذي تحمل إليه في ديات قومه .

ومنها عفة اللسان ، وكانوا يتمدحون بها أكثر مما يحافظون عليها . وأخيراً عفة النفس عن الشهوة الإباحية ، وهي أجدر من غيرها بالذكر ، فقد كان البدوي لا يعرف معنى صحيحاً لهذه الفضيلة ، فسبى امرأة ، أو انتهاك حرمة فتاة في بيت

أبيها لا يدخل عندهم في باب العفة وعدمها . وإنما العفة كل العفة ألا يعتدي أحدهم على جارتها : بل لا يرفع نظره إذا مرت أمامه . ويجمل به أن يمتنع عن زيارتها في غياب زوجها ، لأن حرم الجوار مقدس لا يجوز خرقه وتدنيسه . قال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتسي ،
حتى يوارى جارتني مأواها

وقد عرف حاتم بعفته عن السؤال في جوعه وفقره ، ولطالما جاع وافتقر لفرط سخائه فغف عن المسألة ، وأبى أن يذل ويذل ماء وجهه . وفي ذلك يقول : وإني لعف الفقر مشترك الغنى ، أو يقول :

فما زادنا بأوا على ذي قرابة
غنانا ، ولا أزرى باحسابنا الفقر

غير أنه كان يبيح لنفسه السؤال إذا اضطره الدفاع عن شرفه إلى طلب المال ، فيلجأ إلى أقربائه يسألهم المؤازرة ليسد ما به من خلة ارضاء للمجد ، وحفاظاً على الحسب . فإن منافسته لسعد بن حارثة وأصحابه في الكرم ، عرضته لأن يخالطهم جميعاً في كثرة الطعام والشراب . ويكون ذلك في يوم حافل مشهود يتبارى به المتنافسون في نحر الإبل وبسط المأكّل وجر زقاق الخمر ، ودعوة عامة يدعونها الناس ، فرأى أن يستعين عشيرته ، لأن وراء حارثة صهرة الملك النعمان ، والمخايلة في سوق الحيرة .

وكان كغيره من أبناء عصره يفاخر بحفاظه على الجوار وتعففه عن الجارة لا يختلس النظر إليها ، ما بدت له ، أو ما انكشف ستر خباثتها . ويسد أذنيه عن استطلاع أسرارها مع زوجها . وإذا أخلى الجار بيته ، فخبأها حرم عليه لا يدخله في غيبة بعلها . بيد أنه لا يقطع عنها صلاته بل يتعهدا بكل ما تحتاج إليه دون أن ترخى عليه ستور بيتها .

البأو : الفخر

وقد شغلت الجارة جانباً كبيراً من مفاخره ، فجاء شعره ، وفيه صور مختلفة لعفته عنها ، وحرصه على قداستها ، فمن ذلك قوله :

وما تشتكيني جارتني غير انها
إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها
سيلغها خيرني ، ويرجع بعلمها
إليها ، ولم يقصر على ستورها

وقوله :

إذا ما بت اختل عرس جاري
ليخفيني الظلام ، فلا خفيت
أفضح جارتني ، وأخون جاري ؟
معاذ الله أفعل ما حييت

وقوله :

وما ضر جارا يا ابنة القوم ، فاعلمي ،
يجاورني ، الا يكون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة ،
وفي السمع مني عن حديثهم وقر

فهذه العفة التي يتحدث عنها حاتم ويفاخر بها ، هي الفضيلة التي اصطلح عليها الجاهليون يجعلونها مرهونة بالجواري ، ولا يتجاوزون بها إلى أبعد من الجارة . ومع ذلك فقد روي عن حاتم أنه دعي مرة إلى ريبة لا علاقة لها بالجوار فنفر منها مبتعداً ، ولم يغفل أن يشير إليها في شعره ، وان تكن عفته يومئذ تحتمل التأويل ، وتقبل في التفسير وجهاً آخر . وقد وقعت له هذه الحادثة مع ماوية بنت غفزر ، ويقول ابن قتيبة انها من بنات ملوك اليمن . والظاهر أنها كانت معتدة بجاهها ومالها ، ولعل لها من الجمال ما يزيد ما اعتداداً ، فكانت تزوج من يعجبها من الرجال ، وتشرط عليه حق الطلاق ، فإذا ملت جانبه تركته . والطلاق في الجاهلية

من حقوق الرجل وحده ، إلا أن تجعله المرأة شرطاً لعقد الزواج ، ويرضى الرجل به ، فيصبح لها الحق مثله في طلب الانفصال عنه ، وعليه أن يدعن لطلبها كما تدعن هي لطلبه . وطريقة الطلاق عند النساء تكون بتحويل باب الخباء ، فإن كان الباب قَيْلَ المشرق ، حولته قَيْلَ المغرب ، وإن كان قبل اليمين حولته قبل الشام . فإذا رأى الرجل ذلك علم أن امرأته قد طلقتة ، فيمتنع عن دخول خبائها .

ويروى عن ماوية أنها أحببت ذات يوم ، أن تتزوج ، فبعثت غلمانها إلى الحيرة ، وأمرتهم بأن يأتوها بأجل فتى يجذونه ، فوقعوا على حاتم فأعجبهم ، فجاؤوا به إليها يرافقه صاحبان له . فلما دخل حجرتها رأى فيها من دلائل النعمة والترف ما لم يتعوده في حياته البدوية الحشنة . فاستوحش من هذه المناظر المترفة ، وساوره شيء من التخوف والانقباض . فدعته ماوية إليها ، فنفر منها وقعد على الباب ، وقال : « إني أنتظر صاحبين لي : » فناولته خمراً ليسكر فجعل يريقه بالباب ولا يشرب . ثم فرّ منها وأتى صاحبيه ، فقال لهما : « أفتكونان عبيد لابنة عفزر ترعيان غنمها أم تقتلكما ؟ » قالا : « كل شيء يشبه بعضه بعضاً ، وبعض الشر أهون من بعض . » فقال حاتم : « الرجل والنجاة » وخرج الثلاثة يتوغلون في قلب الصحراء هارين من تلك الشيطانة المتحضرة . ولم يدع شاعرنا هذه الحادثة تمضي دون أن يستغلها لفخره بالعفة والابتعاد عن الريبة ، مع ما في أمره من أشكال :

لشعب من الريان أملك بابه

أنادي به آل الكبير وجعفر

أحب إلي من خطيب رأيت ،

إذا قلت معروفاً تبدل منكرا

تنادي إلى جاراتها أن حاتما

لعمري ، أراه بعدنا قد تغيرا

تغيرت إنسي غير آت لريبة ،

ولا قائل يوماً لذي العرف منكرا

ومضت على حاتم أيام بعد إنصرافه من عندها ، وهو يفكر فيها ، وفي خوفه

وهربه منها ، فرأى عمله سخياً لا معنى له ، فندم على ما فرط منه ، وتاقت نفسه إليها ، فشد رحاله ضارباً في عرض البيد حتى بلغ دارها ، فوجد لديها النابغة الذبياني ورجلاً من النبيت يريدان خطبتها ، ففضلته عليهما لما شهدت من سخائه وإمساكهما ، ولكن طلبت منه أن يطلق زوجته آفة أن يكون لها ضرة تشاظرها البيت والمباعدة . فرفض طلبها وأبى عليه كرم عنصره إلا أن يكون وفياً لامرأة خبر حبها ووفاءها . فامتنعت ماوية عن الزواج وردته مكرماً . فعاد إلى أهله غير نادم هذه المرة كما ندم في المرة الأولى ، وان تكن نفسه ما برحت تدعوه إلى الأميرة المترفة .

واتفق لحسن حظه أو لسوء حظ حليلته أن توفيت بعد حين ، فتنحصر حاتم من رباط زواج أثر بقاءه على اتباع هوى قلبه . فقام يشد رحاله طالباً ماوية بنت عفر . وشاءت الأقدار أن يحالفه التوفيق في رحلته هذه ، فألفها كما فارقها ليست بذات بعل . فتزوجته بعد ما اشترطت عليه حق الطلاق . فمكثت عنده زمناً ، ثم داخلها أحد أقرباء حاتم يريدان لنفسه ، فما زال يزين لها الطلاق ويحذرهما على ما لها من تذيير بعلها ، حتى اقنعها ، فحولت باب الخباء . فأمس حاتم طالقاً من ليلته ، فنام خارج البيت . وأبت ماوية أن تتزوج ابن عمه لأنها رأت ما أنكرته من لؤمه وشحه وخساسته ، في حين لم تنكر على حاتم غير الكرم والسخاء .

هذا حاتم في حدود عفته ، كما يفهمها الجاهلي بعرفه وعادته ، وهي على علاقتها لا تنافي الفضيلة ولا يعدوها الشاء . وكان إلى ذلك فارساً شجاعاً محمود المشاهد ، عالي الهمة ، مظفراً في الحروب ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا أسر أطلق ، وكان قد أقسم بالله لا يقتل واحداً أمه . وإنه وإن لم يعد من الطبقة المشهورة بين فرسان الجاهلية ، فان فروسيته تمتاز بطابع جميل من سمو الأخلاق . وكانت قبيلته تركز إليه في حروبها ، فتقلده رئاسة الجيش ، وتخصه من غنائمها بالمرباع . فقد رأيناه يعطي البرجمي مرباعه من غارة رابحة أغارها على بني تميم . والقبيلة لا تسلم رئاسة الجيش إلا للفارس المجرب ، والقائد المحنك ، ولا سيما إذا كان ميمون الطالع في غزواته ، يحمي الديار متى طلعت خيول الأعداء . وقد عرف حاتم بهذه الصفات ، وعرف بغيرته على بني طيء وسعيه لخيرها وجمع شملها . وكانت هذه كثيرة العدد منقسمة إلى بطون وعشائر مختلفة ينافس بعضها

بعضاً ، وتتراحم على الماء والكلاء ، فتقع بينها الحروب والفتن ويستحكم فيها الفساد والشقاق . فيعمد حاتم إلى العزلة كارهاً أن يقاتل أبناء قبيلته ، حتى كان يوم الحماميم ، فاجتمعت بطون جديدة على رأسها خالد بن لام ، تريد الأيقاع بعشائر الغوث ، ومنها عشيرة حاتم ، فاضطر صاحبنا عندئذ أن يخوض المعركة للذود عن قومه ، فكان النصر بجانبهم وانهمزت جديدة بعد أن خسرت خيرة رجالها .

على أن حاتمًا وقد عرفناه شديد الإفراط في السخاء لم يأمن شر الفاقة في حياته . فكان يغتني مرة ويفتقر مرارا فإذا هذا الفارس السيد يصبح كأحد الصعاليك ، يتشرد غازياً ناهباً ، يمكس الطريق على القوافل ، ويوقع البلاء في الأحياء الآمنة ليعيد مكانته لدى القبيلة ، ويعود إلى ما كان عليه من الجود والضيافات . وهو يفاخر بحياة التصعك كما يفاخر بحياة الغنى والسيادة فيقول :

غنينا زمانا بالتصعك والغنى

وكلا سقناه بكاسيهما العصر

فما زادنا بأوا على ذي قرابة

غانا ، ولا أزرى باحسابنا الفقر

والصعلوك المحمود عند حاتم هو ذلك الشجاع الذي تتمثل به حياة الصعاليك الفرسان ، لا ذلك الضعيف الذي يلمس قوته من أيدي الناس . وجدير بالفتى الطائي وهو الفارس النجيد أن يحترم النكس الجبان . فقد كانت الشجاعة إحدى الفضائل التي يتمدح بها ، ويجعل لها في شعره مكاناً رحيباً لا يقل في اتساعه عن المكان الذي يعمره بذكر جوده وضيافته ، فهو شاعر الفخر وشاعر الحماسة معاً . ولدينا من منظوماته طائفة حسنة يستوي بها مع طبقة الشعراء النابيين في عصره . وإذا كان شعره يفتقر إلى الصور والتخيالات في مواضع كثيرة من وصف حروبه وضيافته ، فما يلحق بشعر عنتره وطرفة والفرزدق ، فقد أوتي على الإجمال طبيعة اختيار الألفاظ النقية ، وإتقان تنزيلها وتركيبها ، يخرجها حلوة الاتساق فيها نغم وانسجام ، وان تكن لا تسلم في مجموعها من الصلابة والجفاء . وهو ، وإن

لم يتنزل عليه الإلهام بقدر يرفعه إلى طور امرئ القيس والنابعة والأعشى ، فقد أعطي من البصر بأخلاق الناس ما يجعله يقترب من زهير . وإذا صح أن الإنشاء صورة صاحبه ، فحاتم بن عبد الله في شعره مثال ناطق بمكارم الأخلاق .

مراجع :

ابو الفرج	: الاغاني
ابو تمام	: ديوان الحماسة
ابو الفرج	: ديوان حاتم الطائي
ابن الاثير	: الكامل
الماوردي	: أدب الدنيا والدين
	شرح رسالة ابن زيدون
الاب شيخو	: شعراء النصرانية
بطرس البستاني	: الشعراء الفرسان

العيد والصعاليك الفرسان :

تلك الصحراء المتمردة على الفاتحين ما الانت عنقها يوماً لنير غريب ، ولا ذاقت مرارة العبودية حتى في ما تعارفت عليه قبائلها من شرائع وقوانين . كانت هي والحرية توأمتين لا تنفصل أحدهما عن الأخرى فالتلال العارية والفجاج الممدودة لا يطوف منها اليه الا كل طلق الجناح .

وابناء تلك الصحراء على ما فيهم من تفاوت في النسب العريق ، ودرجات الشرف والسيادة ، وعلى ما في ساداتهم من أنانية واعتداد ، كانوا لا يخضعون في قبائلهم لنظام الطبقات خضوع العبد للمولى والمرؤوس للرئيس . ولكنهم يسودون واحدا منها اذا أنسوا به فضائل السيد : ثروة وسخاء وحلما وشجاعة وفصاحة . فتلقى على عاتقه هموم القبيلة ليفرجها بماله ورأيه وشدة بأسه . فسيد القبيلة خادمها الأكبر ، يتحملون اليه بدياتهم وجرائمهم وفقراهم ، فيبذل عنهم ما له ومواقده . يعصبون مشاكلهم بعمامته ، فيكون مسؤولا عن حلها بحكمته وسداد رأيه . واذا ثاروا الى الحرب تعرض في المقدمة لشفار السيوف واسنة الرماح .

بيد أن هذه السيادة ، مع ما فيها من شرف لأصحابها ، لا تجعل في المجتمع القبلي طبقات متباعدة لأنها خاضعة لنظام الانتخاب من جهة ، ثم لأن كل فرد في القبيلة يطمع فيها ويعد نفسه صالحا لها . فاذا رضي لغيره بالرئاسة فلا يرضى أن يفقد معها شيئا من حرته وكرامته وعزة جانبه . وتأبى عليه فطرته أن يدعوه بسيدي ومولاى مع اعترافه له بالسيادة . وإنما يدعوه باسمه أو يكنه بأبي فلان . وخبر البدوي مع عمر بن الخطاب مشهور حين قال له ، وهو خليفة على المسلمين :

« والله يا عمر ، لو رأينا بك أعوجاجا لقومناه بشفار سيوفنا » . ولم يجد سيد المسلمين في صراحة هذا الاعرابي ما يسيء اليه ، لأنها مألوقة عندهم طبيعة فيهم ، وقد نشأ عليها عمر كما نشأ عليها مخاطبه ، فكيف ينكرها عليه .

والبدوي لا يخشى أن يقرع السيد ويغلظله القول ، اذا مس كرامته ، أو ناله بسؤ ، فيذكره بماضيه ، ويقول له : « نحن رفعتك ونحن سودناك ، ولم تكن من قبل شيئا » . وربما افتخر عليه ببأسه وكرمه كما افتخر عنترة على قيس بن زهير سيد بني عبس عندما دعاه بابن السوداء :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت

الفيت خيرا من معم محول

فحرية الأفراد أقدس رمز في حرم القبيلة ، تؤلف منهم مجتمعا اشتراكيا صغيرا ، تشد بعضه الى بعض عصبية تعاونية نازلة من الاشراف الى الصعاليك ، صاعدة من الفقراء الى الاغنياء . يرى كل واحد منهم خير القبيلة من خيره ، وخيره من خير القبيلة . المجموع للفرد ، والفرد للمجموع . فالموسر يساعد المعوز بماله ، والفارس يدافع عن الحمى بسيفه ، ويغزو ليعود بالاسلاب والغنائم ، والشاعر يشيد بمنابق قومه ، ويهجو اعداءهم ، ويرد على من يهجوهم ، والحكيم العاقل يرشد القبيلة ويفض مشاكلها ويفصل في أمورها .

هذه الحياة الحرة في تعاونها المشترك مزجت الطبقات في المجتمع القبلي ، حافظت حقوق الاشراف لاهاضمة حقوق الصعاليك ، فالسيادة لها حدود والفقراء من ابناء القبيلة غير مستعبدين، وانما يستعبد من كانت امه أمة سوداء ، وان كان أبوه من اشراف القبيلة فتعصب العرب للنسب الصريح ، وللون الابيض جعلهم يسترقون كل اسود ، ويلقبونه بالغراب كما لقب عنترة والسليك بن السلكة ، وقد استطاع السليك أن يحرر نفسه من رق العبودية بشجاعته مثلما استطاع الفارس العبسي ، فكان يذكر حسن تدبير الخالق فيقول : « اللهم انك تهىء ما شئت لما شئت اذا شئت . اللهم اني لو كنت ضعيفا كنت عبدا ، ولو كنت امرأة كنت امة » . عرف السليك فضل ربه وفضل شجاعته عندما رأى اولاد الاماء مستعبدين لا يعترف بهم آباؤهم البيض اذا وجدوهم ضعافا . وعرف السليك

فضل ربه وفضل ذكوره عندما رأى الأمة السوداء يستمتع بها الحر ، ثم ينبذها واولادها لخدمة الحرة البيضاء او لرعاية الجمال ، ويدعوها ام ولد لا ام البنين . فتبقى طوال حياتها مكسورة الجناح ، مهضومة حقوق المباعلة والامومة ، ويبقى اولادها طوال حياتهم ضياع النسب ينشدون البتوة والقربى ، فيدفعهم أبوهم ، وتدفعهم العشيرة . ذاك شأنهم ماداموا لا يحسنون الا الحلاب والصر . فاذا كانوا ذكورا وظهرت عليهم بشائر النجابه ، تزول عنهم صبغة العبودية شيئا فشيئا بالاضافة الى ما يكسبون من المحامد حتى يتأتى لهم أن يححو سواد لونهم ببيض العقال ، فيدعيهم أبوهم ، وتقربهم العشيرة ، وترفع أهمهم رأسها بعد انخفاض ، ولكنها تبقى ام ولد لا ام بنين ، ويبقى ولدها عرضة للتعير بابن الامة وابن السوداء .

وليس أدل على النجابه من فتوة تأتلف معها الشجاعة والشعر . فقد كان المجتمع الجاهلي في قحطه وفقره لا غنية له عن الكفاح من أجل الحياة ، يوالي الغزوات والحروب في طلب الرزق والدفاع عن النفس ، فلا غرو أن يكبر الشجاعة ويقدها ، لان الشجاع ينصر القبيلة غازية ، ويحميها مغزوة ويمنع الأموال والنساء والاولاد . وكان المجتمع الجاهلي في حياته الغزوية ، وتنافس القبلي يحتاج الى الشاعر ليدافع بلسانه عن العشيرة فيشيد بمناقبها وينشر مثالب اعدائها ، فتبوأ الشعر منزلة رفيعة ، وعاد حرم الشاعرية لا يقل عن حرم الفروسية كرامة وقداة . وكان السيك فارسا شجاعا وشاعرا مجيدا فغير عجيب أن يعتق نفسه ، ويغسل عنه صبغة العبودية وان لزمه لقب الغراب وابن الامة ، وابن السوداء ، كما كان شأن عنترة بن شداد .

وهؤلاء العبيد والصعاليك لا يقلون فخرا واعتدادا بالنفس عن السادات والاشراف ، يغزون على الخيول وعلى الأقدام ، ويهاجمون القوافل السائرة في بطن القفار ، فيفتكون ويغنمون ، مباهين بشجاعتهم وكرمهم لأنهم يبذلون ما بأيديهم من الغنائم للفقراء والجائعين . واذا جاعوا لا يجدون غضاة في التحدث عن فراغ بطونهم ، فالملل قليل والكسب مبذول ، ولا عار على الفارس منهم أن يبيت على الطوى اذا كان عزيز الجانب كريما ، كما قال عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المآكل

عنتره ابن شداد

عنتره بين الفروسية والعبودية

كان عنتره ولا يزال أشهر الشعراء الفرسان وأحبهم شخصية الى قلوب العامة ، تروى أخباره ووقائعه ، وتحفظ أشعاره صحيحها ومنحولها ، وتأسى أن يفضل عليه شاعر أوفارس . ويرجع الفضل في ذلك الى قصته ، فهي التي نشرت ذكره بين الناس وقربته الى قلوبهم ، وجعلت منه بطلا اسطوريا محببا بما اضافت اليه من خوارق الفعال ، وشاعرا غزلا حماسيا بما نسبت اليه من الشعر الموضوع .

غير أن قصته لا تتعد عن حقيقة التاريخ في تصوير نفسية الشاعر الفارس ونشأته واضطرابه بين العبودية والفروسية . فقد استوحى مؤلفها الحوادث التاريخية ، واعتمد عليها ، ولكنه خرج بها وبالشخاص الى الخوارق الاسطورية فمسحها بخيال رائع أبعداها عن جفاف التاريخ ، وقربها الى طراوة القصص .

فقد نشأ عنتره في التاريخ كما نشأ في القصة أسود اللون ، أبوه شداد من سادات بني عبس ، وامه زبيبة أمة حبشية سبها شداد في احدى غزواته ، فولدت له عنتره ، وكان لها أولاد من غيره ، يسمى التاريخ واحدا منهم وهو حنبل ، وتثبت القصة اثنين ، وهما جرير وشيبوب .

على أن شدادا لم يعترف بابنه في أول الأمر بل أنكره جريا على عادة العرب ، لأنهم كانوا يستعبدون اولاد الاماء ولا يعترفون بهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة . فجعل عنتره في طبقة الرعيان كما يجعل غيره من العبيد . وقد ذكرت القصة رعايته للابل وأوردت عنها أخبارا ، ونسبت اليه شعرا فيها كقوله :

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم

واليوم أمي هامم كلما نكبوا

وإنه ، وإن لم يكن لدينا في شعره الصحيح ما يدل على حياته الرعائية ، فإن

الرواة والمؤرخين اشاروا اليها في قوله لابيه عندما دعاه الى محاربة الاعداء فأجابه :

« العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر » . ويخبرنا السيوطي في

حديث له عن نشأة عنترة أن شداداً قال لأولاده : إن هذا الغلام ولدي ، فكذبوه

وقالوا : انت شيخ قد خرفت تدعي أولاد الناس . فلما شب عنترة قالوا له : اذهب

فارع الابل والغنم وأحلب وصر . فانطلق يرعى .

ولكن نفس هذا الفارس لم تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة

شيء كثير ، فكانت تتألم أشد الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء ، فتحاول

جهداً أن تخرج من طبقة العبيد في اظهار نجابتها ولديها سلاحان ماضيان :

الشجاعة والشعر ، وكلاهما كفيل بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة ،

فالفارس يدافع عنها بسيفه ، والشاعر يدافع عنها بلسانه ، فلماذا لا يتحرر عنترة

وتدعيه بنو عبس وهي تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر في

صباه ، وشهد المعارك وهو لم يزل يحلب ويصر ، ولكن أباه كان حريصاً على

التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره ، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من

فصاحته وأقدامه . فقد روى صاحب الأغاني أن سمية أو سهية امرأة شداد

حرشت زوجها على عنترة ، وادعت أنه يغازلها ، ولم يكن قد تحرر بعد فضربه

والده بالعصا ضرباً مبرحاً حتى سالت جراحه وهو صابر على حكم أبيه ، فلما رأت

سمية ما أصابه من الأذى بكت جزعاً وألقت بنفسها عليه حتى كفت زوجها عنه .

فقال عنترة في ذلك :

تجللتني وقد أهوى العصا قبلي

كأنها صنم يعتاد معكوف

العبد عبدكم والمال مالكم ،

فهل عذابك عني اليوم مصروف

والقصة تورده هذه الحادثة متفقة مع التاريخ ، ولكن تجعل سببها غيظ سمية

من عنتره لأنه كان يسقي عبلة اللبن قبل أن يسقيها . على أن لعنتره شعرا أثبتته
الرواة يتغزل فيه بامرأة إسمها سهية حيث يقول :

طربت وهاجتك الظباء السوارح
غداة غدا منها سنيح وبارح
تعزيت عن ذكرى سهية حقبة ،
فبح الآن منها بالذي أنت بائح

فإذا كانت سهية هذه هي سمية امرأة أبيه ، وقد اختلفت في حقيقة اسمها ،
فتكون رواية التاريخ أصح من رواية القصة ، حتى أن الأبيات التي قالها عنتره بعد
ضربه لا تخلو من الغزل بتلك الزوجة الحسنة . فانه يستهلها بذكر بكائها لأجله ،
وكيف كانت قبل ذلك تصد عنه ولا تكلمه ، ويصف جمال عينيها فيقول :

كانها يوم صدت لا تكلمني
ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف

على أن مثل هذا الشاعر الفارس لا يمكن أن يبقى في طبقة الرعيان والعبيد ،
معرضا للضرب والاهانة ، مهما يكن والده ضنينا بعادات البدو وتقاليدهم ، فان
نجاته ظاهرة امام عيني ابيه وعيون القبيلة جمعاء ، فاذا كان لدى بني عبس شعراء
كالخطيئة وعروة بن الورد والربيع بن زياد يغنونها عن عنتره ، فليس لديها فارس
يقوم مقامه على كثرة ما فيها من الفرسان . فان عنتره معدود من الطبقة الاولى بين
فرسان الجاهلية ، يقدمه الرواة عليهم جميعا ، ولا يذكرون قبله أو معه الا ربيعة بن
مكدم ، وتشهد ابطال العرب بشجاعته ، ولا تخجل أن تظهر خشيتها منه ، فقد
قال عمرو بن معدي كرب فارس بني زبيد واحد الابطال المقدمين « لا سرت
بظعينة وحدي على مياه معد كلها ، ما خفت ان أغلب عليها ، ما لم يلقني حراها
أو عبداها . فاما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب . واما
العبدان فاسود بني عبس والسليك بن السليكة » .

وما كان عنتره ليجهل قدر نفسه فينام على الضميم والخمول ، راضيا بالذل
والعبودية ، فقد كان يعلم حق العلم أن قومه يحتاجون اليه إذا اغاروا أو أغير

عليهم ، فأخذ يلح على أبيه أن يعترف به ، وأبوه يعرض عنه مخافة التعيير ، وهو صابر ينتظر يوما عصيبا تنكب فيه بنو عيس ، فيلتجئون اليه ، فيغتسم الفرصة لتحقيق امانيه . وليس هذا اليوم بعيد الوقوع ، وغزوات العرب متواصلة طمعا في الغنائم ، أو طلبا للماء والكلأ . فما طال به الأمر حتى سححت له الفرصة التي يتوقعها . وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها فقال ابن الكلبي : « وكان سبب ادعاء أبيه إياه أن بعض أحياء العرب اغاروا على بني عيس ، فأصابوا منهم ، واستاقوا أبلأ ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوا عما معهم وعترة يومئذ فيهم . فقال له ابوه : كريا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسن الكرا أما يحسن الحلاب والصر . فقال : كر وانت حر . فكر وقاتل يومئذ قتالا حسنا ، فادعاه أبوه بعد ذلك والحقه بنسبه » .

وحكى غير ابن الكلبي ان السبب في هذا أن عبسا أغاروا على طيء ، فأصابوا نعما ، لما ارادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيبا مثل انصائبنا لانك عبد . فلما طال بينهم الخطب كرت عليهم طيء ، فاعتزلم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددهم . واستنقذت طيء الابل فقال له أبوه : كريا عنترة . فقال : أو يحسن العبد الكرا ؟ فقال له أبوه : العبد غيرك . فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم » .

ويذكر السيوطي رواية هي أقرب الى روح القصة منها الى التاريخ . ومهما يكن من اختلاف الروايات في سبب تحريره ، فجوهرها واحد . فان عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه ، ويذكرون أيضا انه حرر أخاه حنبلا من بعده . ولكن لونه الاسود بقي شاهدا على عبوديته واعتلال نسبه ، وبقيت أمه زبيبة أمة لا حرة . سوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حجة للناس على أنه هجين ، أحواله الزوج ، ولونه لا ينצל ، وامه لا تتحرر ، والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الامومة والخزولة . فقد جعلوا له القابا تذكره ابدا بسواده وامه ، فهو الغراب واسود بني عيس ، وابن السوداء ، وابن زبيبة ، فما عليه الا ان يقبل هذه الالقاب ، ويدافع عن لونه وامه ليخرس السنة المعيرين . فكان له كفاح بسيفه وكفاح بلسانه ، فجاء شعره صورة ناطقة بهما مثال ذلك قوله :

وانا المجرب في المواقف كلها
من آل عيس منصبي وفعالي
منهم أبي حقاً ، فهم لي والد
والام من حام فهم اخوالي
فهو مفاخر بأصله من جهة أبيه ، معترف بأصله من جهة أمه ، وان يكن لا
يجد فيه فخراً ، ولكنه يحميه بحد سيفه من المعيرين كما يقول :

اني امرؤ من خير عيس منصبا
شطري ، واحمي سائري بالمفصل
وقد اضطر غير مرة أن يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه كما دافع عنه بشعره
ليرد تحامل المعيرين ، ولا سيما ابناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنه
ابن السوداء .

روي أنه وقف مرة ينشد قوله :

اذ يتقون بي الاسنة لم أحم
عنها ، ولكنني تضايق مقدمي

فمد له عمارة بن زياد العبسي سنان رمحه وقال : نحن نتقي بك الاسنة يا ابن
السوداء . وكان عنترة أعزل لا سلاح عليه ، فقال له : أغفرها . ثم ذهب ولبس
درعه وتقلد سيفه وركب فرسه ، وأقبل حتى وقف امام عمارة وأنشد البيت : اذ
يتقون . . . فيتغافل عنه عمارة حين رآه في سلاحه ، فعيره عنترة بشعره وافتخر
عليه .

وقد ينقذ بني عيس ببسالته من وطأة العدو فيأبى ساداتها الا أن يذكر او عمله
المجيد مقرونا بسواده وأصله تحقيرا له ، وتعصبا منهم للنسب العربي الصريح .
قال أبو عمرو والسيباني : غزت بنو عيس بني تميم يقودهم قيس بن زهير ، فانهزمت
بنو عيس ، وانهزم قيس معهم وطلبتهم بنو تميم ، فوقف عنترة وحده يحمي
المنهزمين من ابناء قومه . فلم يصب واحد منهم . وكان قيس سيدهم ، فساء ما
صنع عنترة يومئذ ، ورأى فيه ما يميس زعامته القبلية . فقال حين رجع : « والله ما

حمى الناس الا ابن السوداء » . فنظم عنتره قصيدة يفتخر بها ويعرض بقيس بن زهير ، يستهلها مفتخرا بأصله العسبي مدافعا عن أصله الحبشي بسيفه ، قائلا أنه يفضل الجوع على أن يأكل طعامه بذل ، ويعرض هنا بقيس لانه كان أكولا ، وانهمز من المعركة ذليلا ، ثم يقول :

وإذا الكتيبة أجمت وتلاحت

الفيت خيرا من معم نخول
والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بضربة فيصل

على أن قيس بن زهير قد اعترف بفضل عنتره على الرغم منه ، وان سماه ابن السوداء تحقيرا له ، فعنترة وحده حمى بني عيس ورد عنها كوكبة اللاحقين ، فحق له ان يفتخر ويعرض بالذي عيره أمه وسواده ، وان كان معيره قيس بن زهير سيد بني عيس . ولطالما رأى قومه يهتمون به في الحرب ويقدمونه عليهم في مواقف الاخطار ، فتشتفي نفسه المتألمة من تعييرهم و:

ولقد شفى نفسي وأبرا سقمها

قيل الفوارس : ويك عنتر اقدم

ولكنه لا يلبث أن يسمع التعيير بعد زوال الخطر فتعود الى نفسه آلامها ، فيثور ساخطا عليهم ، منددا بهم لأنهم يعرفونه في الحرب ، وينكرونه في السلم . فهو مضطرب ابدا بين العبودية والقروسية ، هو ابن شداد في المعارك ، وابن زبيبة السوداء في الامن والدعة وقد عبرت قصته بشعرها عن حالته أصدق تعبير حين تقول بلسانه :

ينادونني في السلم : يا ابن زبيبة ،

وعند اصطدام الخيل يا ابن الاطايب

عنتره وعبله :

يتلازم عنتره وعبله على السنة العامة كما تتلازم اسماء مجنون ليلي وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم في أفواه الرواة والادباء . والفضل في تلازم عنتره وعبله يعود الى القصة لا الى التاريخ . لان الرواة والمؤرخين لم يخصصوا عبله بجانب كبير من أخبارهم عن شاعر بني عبس وفارسهم ، وانما بذلوا اهتمامهم في التحدث عن حروبه وعبوديته وتحرره . واذا ذكروا عبله أتوا بها عرضا خلال هذه الروايات .

بيد أن القصة جعلت عبله أساسا تقوم عليه حياة عنتره بأحداثها ومغامراتها . فوصفته في مصاف العشاق التيمين الذين ابتلوا بالهوى العذري وعانوا أشد التباريح والألام . وعبله هي التي أنطقته بالشعر العاطفي الرقيق ، ودفعته الى اقتحام المكاره والأهوال ليمحو ببيض فعاله سواد لونه ، ويبلغ منزلة من المجد تؤهله لان يخطبها الى ابيها ويتزوجها . وقد تسنى له أن يتحرر من عبوديته ، ويصيب بشجاعته وفصاحته شهرة يحسد عليها . الا أن عمه مالكا والدعبله كان من المتمسكين بتقاليد الاعراب في تعصبهم لصراحة النسب ، واحتقارهم للبعد الهجين ، وان اعترف به أبوه ، فهو عندهم ابدا ابن الامه وابن السوداء .

فأبى العم أن تكون ابنته زوجة لابن أخيه ، وامه سبية حبشية ، وما يعنيه ان يعتقه ابوه ، ويناديه الناس ابا الفوارس ، وفارس بني عبس ، فابنته حرة بيضاء من حرة بيضاء ، فكيف يزوجه ابدا اسود من أمة سوداء ؟ وهنا تبدأ المأساة الغرامية في قصة عنتره ، فان العم كان يخشى سطوة ابن أخيه اذا صارحه بالرفض ورده خائبا ، فأخذ يسعى للخلاص منه بالقائه في تهلكة لا يعود منها سالما . فطلب منه مهرا لابنته الف ناقة من عصافير الملك النعمان . فسار عنتره في طلبها لرفيق له غير أخيه شيبوب ، فلاقى أشد الأهوال والأسر حتى عاد بها ظافرا .

على أن العم لم يكن ينتظر هذه النتيجة بل كان يتوقع هلاك عنترة في أرض العراق . فلما رآه يرجع سالما يحمل اليه المهر طالبا تحقيق امنيته ، عمد الى وسيلة اخرى ينقذ بها ابنته من زواج ممقوت يلحقه العار بسببه . فترك حي بني عبس ولجأ الى القبائل الغربية يستجير بها ، ويعرض ابنته على فرسانها وساداتها مشترطا عليهم رأس عنترة صداقا لها . فحينما نراه في بني شيبان يعد بسطام بن قيس بن مسعود باعطائه عبلة اذا أجازة من عنترة ، وحينما نجده في بني كندة يحتفل بزفاف ابنته الى فارسها مسحل بن طراق .

ولكن عنترة كان يفسد عليه كل مرة خطته قبل تمامها ، فيأتي الى بني شيبان ويبارز بسطاما فيقهره ويصادقه بسطام . ثم ينقض على بني كندة ليلة العرس فيلقي الذعر في الحي ، ويقتل مسحل بن طراق . حتى اذا أعيت الحيل والد عبلة اضطر الى أن يزوجه بها مكرها او راضيا . فحظي عنترة بمحبوبته بعدما عانى لأجلها أبرح الآلام . وقد تركت لنا القصة شعرا اضافته الى عنترة يدون هذه الأحداث . منها قصيدته التي قالها في العراق عندما أسر وهو يطلب النوق العصافير :

ترى علمت عبيلة ما الاقي
من الأهوال في أرض العراق
وقصيدته التي خاطب بها ابا اليقظان بسطام بن قيس الشيباني عندما خرج الى مبارزته :

يا ابا اليقظان اغراك الطمع سوف تلقى فارس لا يندفع

ثم قصيدته التي هدد بها مسحل بن طراق :

امسحل دون ضمك والعناق

طعان بالثقفة الدقاق

ولسنا نزعم باطلا اذا قلنا أن أجمل شيء في قصة عنترة هي مأساته الغرامية التي يجتمع فيها الحب والحرب سواء في الحوادث أو في الأشعار .

وغريب أن يسكت الرواة عنها . ولا يعيرونها جانباً من اهتمامهم ، مع أن شعر عنتره الصحيح لا يخلو من الإشارة إليها .

فهذه المعلقة ، وهي أثبت شعره تدلنا على أن الفتاة التي أحبها كانت بعيدة عنه في ديار الأعداء ، ويسميتها عبلة ويكنيها بأم الحيثم ، ثم يقول انها ابنة مخرم وقيل إن اسمه مخرمة ، وهو رجل لم نعرف عنه شيئاً ، وأبو عبلة إسمه مالك فلعل مخرمة بعض أجدادها . ونجبرنا في المعلقة أنه بعث جاريته تتحسس أخبار محبوبته ، فعادت إليه تقول انها رأت غفلة من الأعداء تسهل طريق اصطلياد الفتاة قال :

حلت بأرش الزائرين فأصبحت عسرا علي طلابك ابنة مخرم
علقتها عرضاً واقتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم
ومنها

فبعثت جاريته ، وقلت لها : إذهبي

وتجسسي أخبارها لي واعلمي
قالت رأيت من الأعادي غرة
والشاة ممكنة لمن هو مرتم
يا شاه ما قنص لمن حلت له
حرمت علي وليتها لم تحرم

فهذه الأبيات من المعلقة صورة ناطقة بالمأساة الغرامية التي تحدث عنها القصة ، فعبلة في أرض الزائرين اي الأعداء . فأصبح طلبها عسيراً عليه ، كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان في ذلك لطمعاً منه في غير مطعم : « زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم . » ولماذا أرسل جاريته إلى أرض الأعداء تتجسس أخبار حبيبته ؟ أليس لكي يأخذهم على غرة كما أخذ بني كندة وهم في غفلة العرس ، فقتل مسحلاً وأنقد عبلة ؟ « قالت رأيت من الأعادي غرة . » وأخيراً وأخيراً هذه الشكوى يرسلها قلبه الجريح : « حرمت علي وليتها لم تحرم . » أفما تنطق كفاية بلسان القصة وما لقي فيها عنتره العاشق من اليأس والحрман ؟

على أن اليأس والحрман لم يرافقا عنتره طوال حياته في القصة ، فقد رق له

قلب عمه وصفا بعد قسوة وضغينة . فأزوجه عبلة ، فأقيمت الأفراح والولائم أياماً وليالي كما تقام في أعراس الملوك . ونال عنترة أمنيته وشفي قلبه الكليم ، فألقى الستار على مأساته الغرامية ليرتفع على مشاهد جديدة تتمثل فيها الأبوة والفروسية ، وحوادث أخرى يشترك فيها الانس والجن .

أما التاريخ فلا يقطع بزواج عنترة من عبلة ولا ينفيه . فالسيوطي مثلاً يخبرنا بأن والد عبلة اعترف بابن أخيه ووعد أن يزوجه ابنته إذا أنقذه من الأسر . وقد أنقذ عنترة عمه وأنقذ عبلة معه . فهل برّ مالك بوعد فاعطاه ابنته ، أو أنه كان مخادعاً له ، حتى إذا انطلق سراحه عاد إلى دفعه ومماطلته ، ففضى الفارس الأسود حياته بين وعد ورد ، ويأس وأمل ؟ ثم هل بقيت عبلة عذبة لم تتزوج إذا كان الحظ لم يسمح لعنترة بقضاء لبنته منها ؟ تلك أسئلة ربما لا نعدم أن نجد جواباً عنها في شعره الثابت وإن كان الرواة يسكتون عنها أو لا يردون رداً صريحاً . وشعر عنترة الذي وصل إليه وأثبتته الرواة ، لا يقتصر في غزله على عبلة وحدها ، بل يتناول أحياناً سمية أو سهية امرأة أبيه ، وكان يهواها في صباه ، وقد ضربه والده من أجلها . ويتناول أيضاً امرأة اسمها رقاش :

نأتك رقاشِ الا عن لمام
وأمسى حبها خلق الرمام

ولا نعلم عن هذه المحبوبة شيئاً فهي نكرة لا تعرف إلا باسمها ، ولكن الرواة يخبروننا بأنه كان لعنترة زوجة من بني بجيلة ، فقد تكون هي رقاش ، أو أن رقاش غيرها .

ومهما يكن الأمر فغزل عنترة في عبلة خير شعره من هذا النوع ، وإن كان لا يقاس بحماسياته . فقد ذهب في شعره بعامة ذكر الحرب ، على حد تعبير الأصمعي ، كما ذهب أمية بن أبي الصلت بعامة ذكر الآخرة ، وعمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب . وإذا كان عنترة قد أصاب في غزله شهرة بين العامة ، فيعود الفضل في ذلك إلى شعره المصنوع في القصة ، فقد حمل عليه غزل كثير ليس له يد فيه البتة . ونحن يهمننا غزله الصحيح ، وغزله في عبلة خصوصاً ، لعنا نلقى جواباً عن الأسئلة التي مر ذكرها . وأشهر ما وصل إلينا من غزله في عبلة ما جاء في

المعلقة ، فقد خص عنتره طويلته الحساء بابنة عمه ، ثم بذكر معاركه ومبارزاته .
ويزعم بعض الرواة أن المعلقة أول قصيدة قالها . وكان لا ينظم من الشعر إلا
البيت والبتين في الحرب ، مع أنهم يعترفون بأنه أنشد معلقته بعدما كان قد أبل
وحسنت وقائعه ، واعترف به أبوه وأعتقه . وهم في الوقت نفسه يروون له قصائد
قبل تحرره ، منها قصيدته التي قالها في سمية امرأة أبيه .

وليس من المعقول أن تكون المعلقة أولى قصائده ، وقد ذكر فيها حرب
داحس والغبراء . وهذه الحرب انتهت حوالي سنة ٦٠٩ م . أي قبل وفاة الشاعر
بنحو تسع سنوات . فسواء نظمت بعد الحرب أو في أثناءها ، فإن عنتره كان متقدماً
في السن عندما أنشأها ، إلا إذا كان قد نظمها في أوقات مختلفة وأزمنة متقطعة .
ومهما يكن من شيء فليست المعلقة أولى قصائده ، وإن كانت خير شعره . بيد أننا
نستدل منها على حرمان عنتره وتظلمه من قوم عبلة لأنهم بعدوا عنه ، ونزلوا في
أرض الأعداء ، فمنعوا منه : « حرمت علي وليتها لم تحرم . » فعنتره في المعلقة
لم يتزوج عبلة بعد ، بل يشكو فراقها ، وجور أهلها عليه . فإذا كانت المعلقة
نظمت دفعة واحدة في زمن واحد ، فيكون الشاعر قد بقي طوال حياته محروماً ابنة
عمه . وله قصيدة أخرى قالها فيها يتبين منها ان عبلة تزوجت رجلاً غيره ، يصفه
شاعرنا بأنه بادن كثير اللحم .

وهذه القصيدة معروفة له يثبتها الرواة ولا يدفعونها . وليس في سائر شعره
الصحيح ما يدلنا على أنه حظي بابنة عمه كما تقول القصة ، ولكنه يشبب بها
ويؤثرها على جميع النساء ، وان كان لا يقصر غزله عليها :

ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت

ان لا أريد من النساء سواها

وغزل الشاعر في عبلة ، لا مشاحة ، أفضل غزل قاله ، لأنه يمثل حرمانه
ولوعته وتظلمه ، ويبدو فيه أثر العراك العنيف بين حبه وسواد لونه وضعة نسبه .
هذا العراك الذي شهدنا وقائعه في الفصل السابق بين العبودية والفروسية . فعبلة
لم ترافق عنتره في شعره الغزلي وحده بل رافقته أيضاً في فخره وحماسه وذكر
حروبه . فإنما هو يفتخر ويغامر من أجلها . وإذا لم يكن لديه من جمال الصورة

وكرم المحتد ما يشفع به إليها ، أفلا يسمى لإرضائها بوصف شجاعته وسخائه
وعفته ، وذكر معاركة ومشاهده ، حتى إذا قرن إسمها باسمه تستطيع أن ترفع
رأسها به :

اثني علي بما علمت فانني سمح مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا أظلمت ، فانني ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم

بمثل هذا الشعر يبدع عنثرة لأنه يصور نفسه أبلغ تصوير ، ويعطينا طرازاً
فاخراً من غزل الفرسان ، وكيف تجتمع فيه ألفاظ الحب وألفاظ الحرب ، فنراه
يعرض معاركة على عجلة لتشهد أفعاله في مبارزة الأبطال أو تزاحف الجيوش :

هلا سألت الخيل يا ابنه مالك ،
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
بجيرك من شهد الواقعة انني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويصف لها الفارس الذي يبارزه ، فإذا هو بطل تتحاماه الأبطال خشية
لقائه ، وكريم طيب المحتد من أولئك البيض الأحرار الذين يفاخرونه بأصلهم
ونسبهم ، فيظهر بذلك فضله في التغلب عليه ، وهو العبد المغمور التسب :

ومدجج كره الكمأة نزاله ، لا معن هرباً ، ولا مستلم

جادت له كفي بعاجل طعنة بثقف صدق الكعوب مقوم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

ففي قوله : الكريم ، وحسن بنانه والمعصم دلالة على محند الفارس ونعمته
وبياض لونه .

ويصف معاركه ، فإذا هي ملاحم تشتبك فيها الأبطال ، مشاكية هولها
بغماغم لا تفهم ، وبنو عيس يتقون به رماح الأعداء فما يرقد عنها ، وإن ضاقت
عليه فسحة الاقدام . والأعداء تلهج باسمه مشرعة رماحها إلى صدر جواده . فإذا
هو ركن المعمة وقوامها ، وحجر رحاها وثغالها . وفي المعلقة وصف جميل لهذه
المعارك التي يعرفها عنتره أمام عبلة صوراً سريعة تبدو فيها بطولته بارزة الخطوط
والألوان . وكذلك قصيدته اللامية فانها تشتمل على تلك الخصائص التي يتميز بها
شعره في الغزل المقترن بالحماسة ، غزل الفرسان .

نظرت عبلة إلى عنتره ذات يوم فرأته قليل اللحم ، شاحب اللون كالسيف ،
مشعث الشعر ، بالي القميص ، لم يتطيب منذ سنة ، ولم يمشط شعره ، لا
يرتدي كسوة غير درعه ، فظهر صدأ الحديد على جلده لأنه لم يغتسل :

فتضاحكت عجباً ، وقالت قولة :

لا خير فيك ، كأنها لم تحفل

فعجب عنتره منها كيف مالت بعينها عن ماجد مثله طلق اليدين ، طويل
القامة ، والعرب تتمدح بالطول . فقال لها :

لا تصرميني ، يا عبيل ، وراجعي

في البصيرة نظرة المتأمل

فكم من فتاة أملح منك دلالاً وأشهى منظرأ جاءت إلي تطلب مواصليتي ،
لأنني أهل لمحبتها فوصلت حبلي بحبلها . يا عبل كم من حرب تغمر الفرسان
بشدائدها باشرتها بنفسي ، فكشفت غمتها ، وما كادت ، وحقق ، تنكشف .
فيها من السيوف والرماح اللوامع ما لو رأيت كثرت لسلوت التبرج بعد حبك
للخضاب والتكحل . وإذا رأيتني نحيلاً قليل اللحم ، فمن يكن مثلي هدفاً لأسنة

الرماح ، لا بد له من أن يهزل . ورب فارس أبيض اللون مثل زوجك ، كثير اللحم ، ضخم على ظهر الجواد تركته على التراب معفراً ، والأعداء بين جريح وقتيل . حقاً إنه بطل شجاع لقيت الموت يوم لقيته لابساً درعه ، ولكن سيفي كان مجرداً ، هو سيف صلب أشق به الجماجم في الحرب ، وأقول : سلمت يد صانعه :

أما تريني قد نحللت ومن يكن

غرضاً لأطراف الأسنة ينحل

فلرب أبلج مثل بعلك بادن

ضخم على ظهر الجواد مهبل

غادرته متعفراً أوصاله

والقوم بين مجرّح ومقتل

ولقد لقيت الموت يوم لقيته

متسربلاً ، والسيف لم يتسربل

ذكر اشق به الجماجم في الوغى ،

وأقول : لا تقطع يمينا الصيقل

فهذه القصيدة وحدة مترابطة الأجزاء بما فيها من غزل يمازجه العتاب ، وفخر تتخلله الحماسة . فعنترة بين الحب والحرب شأنه بين العبودية والفروسية ، يدافع عن نفسه مظهراً شجاعته وحسن خصاله ، وتفوقه على الأحرار لثلاث تغتر عبلة بزوجها البادن الذي لم تنهك جسمه الأسفار لما هو عليه من نعمة تغنيه عن الغزو وركوب المصاعب طلباً للكسب والحياة ، فتحسبه أفضل من فارسها القليل اللحم الشاحب اللون . فكم بطش عنتره بفارس مثله من البيض البادين ، وتركه صريعاً متعفراً الأوصال . ولا يغفل أن يذكر لها تصدي النساء الجميلات له خاطبة وده على سواد جلده وهزال جسمه . فالكفاح الذي شهدناه قوياً عنده بين العبودية والفروسية ، صورة للدفاع عن لونه ونسبه ، نشاهده الآن على قوته بين الحب والحرب صورة أخرى لمأساته الغرامية .

(٢) ابلج : أبيض . مهبل : كثير اللحم .

شكوى الفرسان

أحب صفات الشعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى ، وصادم الحزن واليأس روح البطولة والإقدام . فان تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشعر جواً رائعاً يؤثر في النفس ويستولي على المشاعر فأجمل حماسيات عنتره ما ظهرت فيه آلامه وشكاياته لتعير الناس له بسواده وضعة نسبه ، أو لحرمانه عبلة التي يجبها ولا يستطيع الوصول إليها . وكذلك عبد يغوث الحارثي ، فإن أحسن شعر له ما قاله في بني تميم وهو أسير ، وقد هموا بالقضاء عليه ، فطلب أن يطلقوا عن لسانه ، وكانوا قد كموافمه ، فرفعوا الكمامة وتركوه ينوح على نفسه بقصيدة هي من خير الشعر الجاهلي بما فيها من فخر وبطولة وعزة نفس ، على ألم وتظلم وحنين إلى الحياة الحرة المرسله الجناح :

أقول، وقد شدوا لساني بنسعة ،
أمعشر تيم ، أطلقوا عن لسانيا
فان تقتلونني ، تقتلوا بي سيدا ،
وإن تطلقوني ، تحربوني بماليا
أحقاً عباد الله ان لست سامعاً
نشيد الرعاء المعزبين المتاليا
وتضحك مني شيخة عبشمية
كأن لم تري قبلي أسيراً يمانيا
وقد علمت عرسي مليكة انني
أنا الليث معدياً علي وعاديا

وكثير شعر الشكوى عند الفرسان الذين خلعتهم قبائلهم لجرائمهم ومعراتهم ، فخرجوا مشردين عن الأحياء ، يتذمرون متألين ، ولكن بفخر وإباء ومباهاة ، ولنا في معلقة طرفة أو لامية الشنفرى مثال صالح لا يعدوه الجمال . والشعراء الصعاليك على الجملة يتميز شعرهم الحماسي بالشكوى والألم ، فيما ان يتذمروا على قومهم لأنهم خذلوهم وطردوهم ، واما أن يتظلموا لضيق العيش وقلة ذات اليد . فإذا شكوا أهلهم وفاقتهم وجوع العيال أحاطوها بإطار من الفخر بالقوة والإقدام والسعي لطلب الرزق ، وبالجود والإتلاف ومكارم الأخلاق . هذه الميزات هي التي ترفع شعر الفروسية على اختلاف أحوال أصحابه ، وتجعلنا نحس فيه ألم الأسد الجريح ، تضوره نزوان ، وبكاؤه زئير . فسمع الشنفرى يتظلم من أهله لأنهم لم يعينوه على جرائمه ، ويلجأ إلى أمه الطبيعة مستأنساً بها ، رابطاً أواصر القربى بسباعها ووحوشها ، يفاخر ، إذا فاخر ، بالشرذ والفتك والسلب والأيتام والتأييم ، كما يفاخر بفقره وجوعه وقناعته ، وقذارته :

بعيد بمس الدهن وانبلى عهده

له عبس عاف من الغسل محول

ولم يكن السليك بن السلكة دون الشنفرى في الإجمام والتصعلك ، فهو من أولئك الفتاكين الذين لا يرعون حرمة ، ولا يستفظعون جريمة ، يستحل الغدر لإرضاء شهوة أو إشباع مطمع ، ولكنه كان يبر اخوانه الصعاليك ، ويتعهدهم بالعطاء إذا أيسر . وربما قام بالغارة وحده ، وأبقى أصحابه كامنين منتظرين لا يأتون عملاً ، حتى يعود إليهم يطرد الإيل ، فيعطيه حصصهم كاملة دون أن يبذلوا في سبيلها جهداً ، أو يلاقوا عناء ، غير أنه كان يفرق بين صعلك وصعلوك ، كحاتم الطائي ، يحمّد الصعلوك المقدام ، ويذم الصعلوك الخامل . وهو كسائر الفرسان المقترين يعاني الفقر ولا ينجل من ذكر فاقته وجوعه وشحوبه ونحول جسمه ، ويفاخر بمضاء عزمه في مغالبة الدهر ومقاومة الخطوب :

وما نلتها ، حتى تصعلكت حقبة

وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالعيف ضربي

إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

وأكرم الصعاليك يداً وأخلاقاً عروة بن الورد العبي . قال فيه صاحب الأغاني : هو شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد . وقال عبد الملك بن مروان : « من زعم أن حاتم أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . »

ما اكتسب عروة مالاً ليجمعه وينتفع به ، ولا غزا غزوة ليستمتع بغنائها ، وإنما كان يجهد ويتعب ليجعل إناءه مشتركاً بينه وبين غيره ، وجسمه مقسماً في أجسام كثيرة يكتفي بشربة ماء ، ويقدم طعامه للجائع في ليلة البرد ، حين تصاب البادية بالقطح لانقطاع المطر واشتداد الصقيع ، فيسطو الجوع على الفقراء الضعاف ، فيهرعون إلى أبواب الكرام . وباب عروة ليلتذ مفتوح وكف الصعلوك مبسوطة تجود عليهم ببقية ما ترك جوده لديه :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة ،

وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

أتهزأ مني ان سمنت ، وان ترى

بجسمي مس الحق ، والحق جاهد

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة ،

وأحسو قراح الماء والماء بارد

فهذه الأبيات تسمو بأخلاق صاحبها إلى أنبل نفس إنسانية حملها جسم صعلوك . وقد شغل السعي والتطواف شعر عروة كما شغلا حياته ، فكان أكبر همه أن يقع على ثروة يسد بها خلقه وخلقة صعاليكه ، لأنه رأى الناس يزدرون الفقير ولا يقيمون له وزناً في مجتمعهم ولو كان عاقلاً فاضلاً . ورأهم يعظمون الغني ، مبالغين في إطراء فضائله ، متناسين عيوبه وما يقترب من ذنوب . وفي ذلك يقول لامراته عندما لامته على كثرة أسفاره ، على حياته المتشردة المضطربة :

دعيني للغنى اسعى ، فإنني

رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزدرية
حليلته وبنهره الصغير
ويلقى ذا الغنى وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليله ذنبه والذنب جم ،
ولكن للغنى رب غفور

فسعى عروة كثيراً ، وتشرد غازياً يلسب الأحياء ، ويقطع الطرق على
القوافل ، ما يستقر في مكان ، ولا يدري أين يؤدي به الطواف ، فليله في موضع ،
ونهاره في آخر ، فإذا سألوه إلى أين أنت راحل ؟ قال :

وسائلة : أين الرحيل ؟ وسائل ،

ومن يسأل الصعلوك أين مذهبه ؟

وأكره شيء عليه أن يرى صعلوكاً خاملاً لا يسعى في طلب رزقه ، وهو قادر
على السعي لا يمنعه غير الكسل . وله قصيدة جميلة يصور فيها الصعلوك الخامل
الذي يكرهه ، والصعلوك النشيط الذي يحبه ، وتتمثل في شخصيته . فالأول لحاء
الله ، ينتظر مجيء الليل ليقصد الأماكن التي تنحربها الإبل في الحيا ، فيجمع
العظام ويأكلها ، ويعد نفسه غنياً ليلة يضيفه صديق ويحسن قراه . ينام لكسله من
العشاء إلى الصباح ويقوم ناعساً لم يشبع من النوم ، يرقد على التراب لأنه لا يسعى
ليملك فراشاً يرقد عليه . فإذا استيقظ أخذ يفرك الحصى ليزيلها عن جنبه المتعفر :

ينام عشاء ثم يصبح ناعساً

يحث الحصى عن جنبه المتعفر

يخدم نساء الحي كلما دعونه للخدمة مكتفياً بهذا العمل الدنيء ، ولكن هذا
العمل يتعبه على خساسته ، فلا يأتي المساء إلا رأيته بركاً متعباً كالبعير الذي برح به
الاعياء .

وإما الثاني فصعلوك يضيء وجهه كالشهاب ، يطل على أعدائه في ساحتهم ، فيدفعونه عنهم كما يدفع المقامر القدح الذي يخسر معه . لا يجدون الأمن إذا ابتعدوا عنه ، فهم يترقبون عودته لخوفهم منه ، كما يترقب الأهل عودة الغائب كل حين . فإن لقي الموت هذا الصعلوك مات مشكوراً ، وإن لقي الغنى ، فهي بالغنى جدير :

فذلك ان يلقى المنية يلقها
حميداً ، وان يستغن يوماً فأجدر

من هذه الصورة المزدوجة نعلم أن عروة بن الورد كان يفرق بين صعلوك وآخر ، كغيره من الصعاليك الفرسان . يمقت الخامل القاعد لا يعذر إلا المرضى والعاجزين . قال صاحب الأغاني : كان عروة يجمع الصعاليك في السنة المجدية ، سنة القحط والجوع ، وفيهم المريض والكبير والضعيف ، فيحفر لهم الأسراب ويجعلها حظائر مسقوفة بالأشجار ، فيؤويهم إليها ويطعمهم من ماله وكسبه ، فمن قوي منهم بعد مرض أو ضعف خرج به إلى الغزو ، وجعل لأصحابه الباقين نصيباً من الغنائم ، حتى إذا أحصب الناس والبنوا ، وذهب القحط الحق كل صعلوك بأهله . وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها . فرجما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سمي عروة الصعاليك .

ويجمل بنا أن نلم بذكر طرفة بن العبد فان معلقته خير مثال لشكوى الفارس المتظلم من عشيرته . أعلى حق كان أم على باطل .

مراجع :

أبو الفرج : الأغاني

ابن عبد ربه : العقد الفريد

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

أبو تمام : ديوان الحماسة

وغيرها متفرقات من كتب الأدب ودواوين الشعراء .

طرفة

لا خولة طرفة ، ولا ناقتة تجذبه إلينا ، وتجذبنا إليه . فليس في نسيبه ما يغري به ويستخف القلوب . وليس في وصف « عوجائه المرقال » ما يجمع روحنا بروحه ويربط دنيانا بدنياه ، وإن كان أدق واصف بها بشهادة المتقدمين والمتأخرين . وإنما طرفة بنفسه دون غيره ، بلهوه ومرحه ، بفخره واعتداده ، بتشكيه وتظلمه ، يحمِلنا إليه ، أو يحمل ذاته إلينا ، فنحس بإحساسه ، ونأسى لألمه ، ونبتهج لحماسته ، ونضحك لسروره . فحياته في شعره لها أثر قوي في توجيه هذا الشعر ، وضم روحه إلى أرواح قرائه . وإذا لم يكن فيه ما في شعر امرئ القيس من انطلاق النفس ، وعمق التصور ، وتلوين الخيال المتحرك ، فإن فيه من صدق الشعور ، وفطرة النفس ، وبساطة التعبير ما يسبغ عليه الجمال ، ويكفل تقريبه إلى النفوس .

والشعور الصادق عامل رئيس للفن ، يبعث النشاط في النفس ، ويحبو الجمال عنصر الحياة . وكل عمل فني فاته الشعور لا يستحق أن يعد من أبناء الحياة . وليست النشوة التي تحدثها حياة الفن إلا إئتلافاً موسيقياً بين الشعور والخيال والإدراك ، تتولى الألفاظ إخراجه في الشعر ، كما تتولى إخراجه الأوتار والألوان في الموسيقى والرسم .

وكان طرفة في حياته قطعة موسيقية ائتلفت بها عناصر الحس والخيالة والفكر ، فانتمت وحدة كلية على غير تكافؤ لما للشعور من سيادة وسلطان . وجاء شعره صورة عن حياته في اتحاد هذه القوى النفسية ، وسيطرة الإحساس عليها جميعاً . وما هذه الحماسة التي ترافق شعره في الدفاع عن نفسه وعن آرائه ، إلا

وليدة إحساسه القوي لكل ما يتصوره ويفكر فيه . يندفع بإيمان ثابت ، وعناد متصلب ، وإن كان على خطأ في ما يرمي إليه .

وطرفة ربيب البحرين شهد من الحضارة وال عمران ما لم يشهده ساكن الخيام في بوادي نجد والحجاز . ونشأ يتيماً لا يد فوقه تقوم على تأديبه إلا يد أمه ولم تكن قاسية عليه . ووجد في حوزته مالاً وافراً ، فأخذ يختلف إلى الحوانيت وهرب في العشرين أو دون العشرين . يصحب الندمان ، ويشرب الخمر ، ويعاشر القيان ، حتى أنفق ما لديه وأفلس ، فخلعته عشيرته ، وأوسعته لوماً وإهانة . وكان أقرب الناس إليه أخوه وابن عمه أشدهم وقيعة به . فتألمت نفسه الفتية ، وأبت أن تصبر على الضيم في انفتها ، وشدة إحساسها ، فتفجرت منها ينابيع الشعر نائرة للظلم ، ساخطة على الأقرباء ، مستهينة بالموت والحياة . وليس للشاعر غير أنه يسكن به الامه ، ويبث شكايته ، ويرد عن نفسه . فانبرى طرفه يسفه أقوال لائمه ، ويبيد لهم صلاح أعماله وفساد آرائهم ، في شيء من القحة والعناد والزراية والتحدي . وبنى أساس أحكامه على الخلود والفناء . فما دام الإنسان ميتاً على كل حال ، ولا خلود في هذه الدنيا لحي ، فلماذا لا يبادر الفتى منيته بماله وملذاته ، وطرفة يرى لذات الفتى في ثلاثة أشياء : الحرب والخمر والنساء .

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى ،
وان أشهد اللذات ، هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي ،
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

فهذا الدفاع الحار بحجج يسيطر فيها الشعور على الفكر ، هو الذي يجب شعر طرفه إلينا . وما شعره إلا صورة لحياته الهائجة المضطربة ، تلك الحياة التي ينكرها عليه أهله ويضطهدونه من أجلها ، ويراهم ، مع ما لقي فيها من إفلاس وطرده وشقاء ، مثلاً أعلى لا يسمو إليه إلا كل فتى كريم يجمع الشرف والنجدة واللهم والغزل .

وقوة الشعور عند طرفه تكاد تجعلنا لا نأبه لسذاجة الآراء التي يبينها على الموت والحياة ، لأنه لم يقف فيها موقف الخطيب الواعظ ، أو الرجل الحكيم

المصلح ، وإنما جاء بها مدافعاً عن نفسه ، يحسها كأنها بعض روحه ، بما فيها من تدافع الحزن والألم وعزة النفس والانفة ، وجباها بكل ما في الشباب من نشاط وحياء ، وزادتها جمالاً بساطة التعبير عن خوالج النفس دون أي تكلف ، وفطرة صريحة يجلو بها الشعر الجاهلي ، ويستقل بنفسه عن الأدب العربي . فطرة لا يمنح في تعابيره إلى الصيغ المجازية البعيدة ، ولا إلى الصور الخيالية العميقة ، بل يتدفق شعوره بالألفاظ التي تبعثها النفس على سجيته ، سهلة حيناً ، وخشنة أحياناً ، فيها من الفن ما يكفي لنقل الحالة التي يحسها الشاعر ويتصورها ، وإن يكن هذا الفن يحتاج إلى صقل وتهذيب في بعض المواضع ولا سيما المواطن التي لا يتدفق منها الشعور .

والفطرة في شعر طرفة تتمثل أصدق تمثيل بصراحة وسداجة عقائده ، وتحمسه الشديد لها ، تلك الصراحة التي جعلت صاحبها يتحدث عن نفسه في خيرها وشرها ، فيطلعنا على حياته البائسة وقد أفلس وطردته العشييرة ، وترك منفرداً كالبعير الجرب . وجعلته يؤمن بخرافة ظمأ الميت في القبر ، فيتحدى بها لائمه :

كريم يروي نفسه في حياته

ستعلم أن متنا غداً أينما الصدى

ثم هذا التشكي البريء لجور ابن عمه وإعراضه . فابن عمه يراه جانبياً ويقسو عليه ، وهو لا يرى على نفسه ذنباً يستحق هذه القسوة ، وإن يكن أهمل رعاية الأهل ، حتى سرقت منه . فلقد سعى جهده في طلبها وإرجاعها ، فأى ذنب بعدها يحسب عليه ؟ هذه الذهنية الغربية ، بما فيها من إقتناع بالبراءة ، وإيمان بالنفس ، وثقة بآرائها ، وتخطئة لكل ما يخالف عقائدها ، وهي مثال صادق لفطرة طرفة وغرور شبابه ، وعتاده ، وكبريائه .

فما لي أراني وابن عمي مالكا ،

متى أدن منه ينأ عني ويبعد

على غير شيء قلته غير انني

نشدت ، ولم أغفل حمولة معبد

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

فشخصية طرفة الكبيرة على صغرسنه هي التي ترفع منزلة شعره ، وتدنيه إلى
القراء يغلي في عروقه دم الشباب ، فيفيض حماسة وشعوراً وإيماناً . ثم لا بد أن سن
طرفه رفدت شعره فأكسبته عطفاً على العطف الذي يستحقه ، فهو شعر الغلام
القتيل ، وشعر ابن العشرين .

الشعر السياسي - المدح والهجاء كيف الشاعر الجاهلي متكسب التكسب في الشعر

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية ، فقد كان على الشاعر أن يدافع عن أعراض قومه ، ويمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويطري فضائلهم ، ويمجد أعمالهم ، ولذلك كانت القبيلة تعتبط وتتباشر إذا نبغ شاعر فيها ، وإن لم يكن من الفرسان ، لأن حماية الأعراض والأحساب لا تقل شأنًا عن حماية الأرواح والأموال . ولا تلحق الشاعر غضاضة من هذا المدح لأن أمجاد القبيلة ، وهو منها ، تعود إليه كما تعود إلى غيره من أبنائها ، فخليق بهذا المدح أن يعد من الفخر ، فما كان عمرو بن كلثوم في معلقته إلا مفاخرًا بقومه مدافعاً عنهم ، وكذلك الحارث بن حلزة في رده عليه والذود عن بني بكر ، مع أنه لم يكن سيد القبيلة ولا فارسها .

على أن الشاعر الجاهلي مضطر ، كغيره من البدو ، إلى الترحل والنزول على قبيلة غريبة ، ضيفاً أو جاراً ، فتحسن وفادته ، وتبالغ في قراه وإيناسه ، أو تحيره وتؤمنه في خوفه ، وتساعد على حاجته ، فيرى من واجبه أن يشكر لها صنيعها ، ويمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه ، وهذا لا يعد من باب التكسب ، وإنما هو شكر على معروف ، لا استجداء لصلة ، كما مدح امرؤ القيس القبائل التي كانت تضيفه أو تحيره بعد مقتل أبيه ، فقال في المعلى التيمي حين أجاره من المنذر بن ماء السماء :

أقرّ حشا امرئ القيس بن حجر
بنو تميم مصايح الظلام

وكما مدح علقمة الفحل الحارث الغساني ليطلق سبيل أخيه شأس ،
فأطلقه ، وكان أسيراً عنده :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ،
فحق لشأس من نذاك ذنوب

وهكذا مدح عمرو بن كلثوم يزيد بن عمرو فارس بنى سحيم في اليمامة
بعدما أطلقه من الأسر ، ونحرله ، وكساه ، وسقاه الخمر ، فقال بذكر يده عليه :

جزى الله الأغر يزيد خيرا ،
ولقاه المسرة والجمالا

ولم يقتصر مدحهم على الرجال بل ربما مدحوا النساء وذكروا ما صنعن لهم
من الجميل ، مع ما فيهم من عنجهية واعتداد على المرأة . فقد مدح أوس بن حجر
حليمة بنت فضالة بن كلدة . وذلك أنه خرج مرة في سفر ، حتى إذا كان بأرض
بني أسد ، صرعه ناقته ، فاندقت فخذه ، فبات مكانه ، حتى إذا أصبح غداً
جوارى الحي يجتنبين الكمأة وغيرها من نبات الأرض ، والناس في ربيع ،
فأبصرهن أوس ، فدعا جارية منهن وسألها عن اسمها ، فأخبرته . فأعطاهما
حجراً ، وقال لها : إذهي إلى أبيك ، فقولي له : ابن هذا يقرعك السلام .
فذهبت وأخبرته . فاحتمل هو وأهله ، حتى بنى عليه بيته حيث صرع ، وقال :
والله لا أتحول أبداً حتى تبرأ . وكانت حليمة تقوم بخدمته . فقال بمدحها شاكراً :

لعمرك ما ملث ثواء ثوى بها
حليمة ، إذا ألقى مراسي مُقعد
وقد غبرت شهري ربيع كليهما ،

بحمل البايا والخباء الممدد
سأجزيك أو يجزيك عني مشوب
وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

ومدح السليك بن السلكة امرأة يقال لها فكيهة من بني عوارا ، وكان قد أغار
على قومها فلم يظفر منهم بعائدة ، وكادوا يقتلونه ، فدخل خبائها واستجار بها ،

فاخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها . وصاحت
باخوتها ، فجاؤوها ودفعوا عنه ، حتى نجا من القتل ، فقال في ذلك :

لعمر أبيك ، والأنا تُنمى نعم الجار أخت بني عوارا
من الخفريات لم تفضح أباهما ، ولم ترفع لاختوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف ، واستلبوا الخمارا

ولم يعرف التكسب بالمدح إلا عندما أخذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم ،
ويترددون في الأحياء الغربية ، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة ، مادحين
مستجدين ، هاجين من لا يحسن لهم العطاء . فهبطت منزلتهم عن منزلة الشعراء
القبليين الذين أبوا أن يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجه . قال عمرو بن العلاء :
« كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد
عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من
فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهاهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم .

فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ،
وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . »

بيد اننا لا نستطيع أن نرد بدء التكسب على شاعر قبل غيره لبعده العهد ،
وضعف المستندات التاريخية ، وكثرة الشعراء الذين تكسبوا ، وعاصر بعضهم
بعضاً . إلا ما كان من زعم جماعة من الرواة أن النابغة أول من سأل بشعره
واستعطى ، وزعم آخريين أنه الأعشى . قال ابن رشيق في العمدة : « حتى نشأ
النابغة الذبياني ، فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن
المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، أو من سار إليه من
ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالاً جسيماً ، حتى كان أكله وشربه في
صحاف الذهب والفضة ، وأوانيهِ من عطاء الملوك . »

ويعترض ابن رشيق على الذين يضيفون بدء التكسب إلى أبي بصير فيقول :
« وقد علمنا أن النابغة أسنّ منه وأقدم شعراً . » ويقول في الأعشى : « جعل الشعر
متجراً يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته . »

ونعلم من الرواة أن الشعراء قبل النابغة كانوا يقصدون قصور الملوك ويمدحونهم ، فقد ذكروا أن المسيب بن علس دخل على عمرو بن هند ومدحه ، ولقي هناك طرفة والمتلمس . وكان يتردد على القعقاع بن شور الدارمي ويمدحه وينال صلاته . ومن قوله فيه :

ولأنت أجود من خليج مفعم
متراكم الأذيّ ذي دُفاع

ومع ذلك لم يعبر هؤلاء الشعراء ، ولا غض الشعر منهم ، كما أن زهير بن أبي سلمى لم يؤخذ عليه مدحه لهرم بن سنان وقبوله العطاء منه ، وما ذاك إلا لأنهم لم يتخذوا الشعر حرفة للتكسب كما اتخذها النابغة والأعشى والحطيئة .

وليس المسيب بن علس من الذين يذكرون مع كبار الشعراء ليعنى الرواة بتسقط أخباره ، فنعلم دوافع مدحه لعمرو بن هند والقعقاع الدارمي . ولم يتكسب زهير إلا يسيراً من هرم بن سنان ، حتى قيل انه كان يتجنب التسليم عليه لئلا يتعرض لعطائه . وهو على كل حال ، مدح سيداً من قبيلة أقام في أرضها وانقطع إليها ، وتزوج منها ، وأصبح شاعرها وحكيمها ، يرشدها ويدافع عنها ، وأمه تنتسب إليها . وأما النابغة فكان يتنقل من المناذرة إلى أعدائهم الغساسنة ، يمدح هؤلاء وأولئك ويستجديهم . ثم يبذل ما في وسعه لاسترضاء النعمان أبي قابوس ، خاشعاً متذللاً ليعود إلى قصره بعد انقطاع رجائه من الشام . فعيروه وقالوا : غض الشعر منه ، لأنه من أشرف القبيلة .

وأما الأعشى فقد كان أكثر منه تردداً في البلاد . يأخذ الصلة من الملوك والسوقة ، وينفر سيداً على آخر ، فيهجو من لم يسئ إليه ، ليمدح منافسه على السيادة ، فعله بعلقمة بن علاثة تأييداً لعامر بن الطفيل ، ومدحه للمحلّق الصعلوك مشهور ، ولذلك قالوا : جعل الشعر متجراً . قال في تطوافه :

وقد طفت للمال آفاق عُمانَ فحمص فأورى شليم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبط وأرض العجم

وبلغ التكسب إلى أدنى دركاته عند الحطيئة . فقد أكثر من السؤال بالشعر ،

وانحطاط المهمة فيه والإخفاف ، حتى مقت الشعر وذل أهله ، كما يقول ابن رشيق . يمدح الشخص ويتكسب منه ، ثم يهجوهُ ترفلاً إلى عدوه ، فعله بالزبرقان بن بدر عندما هجاه تقريباً إلى بني شماس بعد أن نزل في جواره .

على أن المدح ، وإن صار إلى التكسب الدنيء في أواخر العصر الجاهلي ، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل ، يرفع شأن الخامل ، وينشر ذكره بين الناس كما ارتفع المحلق الكلابي واشتهر بشعر الأعشى بعد خوله :

لعمري ، لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار في يناع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ،
وبات على النار الندى والمحلق

وكما ارتفع بنو أنف الناقة بشعر الحطيثة ، وكانوا ينجلون باسمهم ، ويتسبون إلى بني قريع ، حتى قال فيهم :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ،
ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة .

والتجاء طلاب السيادة إلى الشعراء في منافراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البليغ ، فعامر بن الطفيل اعتمد على نسيبه لبيد ، ثم على الأعشى ، وعلقمة بن غلثة اعتمد على الحطيثة وسواه ، فصار كل واحد منهم يمدح صاحبه ، ويفضله على منافسه ، حتى تمت السيادة لابن الطفيل .

وربما بلغت القبائل مآربها بمدائح شعرائها ، فنجاح بني بكر على بني تغلب يوم التقاضي يرجع في بعضه إلى حسن سياسة الحارث بن حلزة ومدحه واسترضائه عمرو بن هند . ولولا شعر لبيد بن ربيعة لما استطاع العامريون أن يسقطوا الربيع بن زياد العبسي عند الملك النعمان . فقد وفد رهط بني عامر على أبي قابوس ومعهم لبيد وهو غلام ، فوجدوا الربيع في حضرته يناديه ، فأخذ يطعن في العامريين ويذكر معايبهم لعداء بينهم وبين بني عبس . فجافى النعمان وفد بني عامر ،

وأهمل أمرهم . فخرجوا من عنده غضاباً . فعرض عليهم ليبد أن يهجو الربيع
أمام الملك ، فاستخفوا به لصغر سنه . فالح عليهم حتى رضوا . فلما أصبحوا
دخلوا به على النعمان ، والربيع يؤاكله . فقام ليبد يرتجز ويقول :

أكلّ يوم هامتي متفرّعة يا رب هيجا هي خير من دعه
يا واهب الخير الكثير من سعه ،

إليك جاوزنا بلاداً مسبعة
نحن بنو أم البنين الأربعة ،

سيوف حق ، وجفان مترعه
نحن خيار عامر بن صعصعه

الضاربون الهام تحت الخيضة
والمطعمون الجفنة المددعه

مهلاً ، ابيت اللعن ، لا تأكل معه

ورمى الربيع بعد ذلك بالبرص والنجاسة ، فاستقذره النعمان وكره
منادته ، فطرده ، ثم قضى حوائج بني عامر .

ويذكر الرواة ما كان للشعراء من شفاعات مقبولة عند الملوك والأمراء تدل
على منزلة الشعر وتأثيره في النفوس . فان الحرث الغساني فك شأس بن عبدة من
الأسر إكراماً لأخيه علقمة بعدما مدحه . والنعمان بن وائل الكلبي قائد الغساسنة
أطلق سبي غطفان وأسراهم مراعاة للنابعة . وجاء في سيرة ابن هشام أن النبي أمر
بقتل النضر بن الحارث بعد وقعة بدر ، وكان في جملة الأسرى ، فقتله علي بن أبي
طالب . فقالت أخته قتيبة ترثيه وتخطب الرسول بقولها :

أحمد ، يا خير ضيء كريمة

في قومها ، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت ، وربما

من الفتى ، وهو المغيظ المحنق

الضنن : النسل والولد .

فالنصر أقرب من أسرت قرابة
وأحقهم ، ان كان عتق يقتعه

فقال النبي عندما سمع شعرها : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه . »

وبين أن هذه الأخبار عن الشعر والشعراء لا تدل على سقوط منزلة الشاعر وتقدم الخطيب عليه ، كما يزعم عمرو بن العلاء . وأكثرها وارد بعد تحول المدح إلى التكسب في أواخر العصر الجاهلي . وليس في الروايات المختلفة والآثار الأدبية ما ينبئنا أن الخطابة قامت مقام الشعر عند القبائل ، وان عرف بها ساداتهم وملوكهم ، وعدوها من أسباب الرئاسة . ولعله أراد نهضتها في صدر الإسلام لتوافر العوامل الدينية والسياسية والعسكرية ، حتى صار الخطباء ، ومنهم الخلفاء والأمراء والقواد ، يقدمون على العشاء ، كما أن الثر ارتفع على الشعر بتأثير القرآن .

وهذا لا يمنع أن يكون الشاعر الجاهلي قد لحقه بعض الغضاضة في تكسبه من الملوك والسوقة ، وجراءته على أعراض الناس ، إرضاء لمدوحيه ، واستدراراً لعطاياهم . فذم الشعراء من أجل ذلك ، وكره منهم التزلف والاستجداء ، ولا سيما كبارهم أمثال النابغة والأعشى والخطيب لسيرة شعروهم وتأثيره . وربما كانت قبائلهم في طليعة لائميهم ، لابتعادهم ، إذا مدحوا الغرباء ، عن المهمة القبلية ، ولاستمتاعهم بنعم الملوك وهباتهم . والأقرباء أسرع الناس إلى أن يتناظروا ويتحاسدوا . ونحن نعلم أن النابغة لقي من تعيير قبيلته وإنكارها نسبه ما لم يلق مثله من عدو غريب :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ،

ومسا علي بان اخشاك من عار

على أن هذا التعيير للشعراء المتكسبين لم يخفض قدر أشعارهم ، ولا صرف الملوك والأشراف عن التنافس في إستقدامهم وإكرامهم ورفع شأنهم . فإذا كان هناك من غضاضة ، فإنما هي إعتبارية في أذهان القبائل والرواة أكثر منها واقعية عملية ، حتى أن هؤلاء الشعراء لم يتخلوا أصلاً عن العصبية القبلية كالنابغة والأعشى ، فإن لهما قصائد معروفة في الدفاع عن القبيلة والمفاخرة بأجداها .

مراجع :

: العمدة	ابن رشتق
: البيان والتبيين	الجاحظ
: شعراء النصرانية	شيخو
: أدباء العرب في الجاهلية	بطرس البستاني
: الأغاني	أبو الفرج
: الشعراء الفرسان	بطرس البستاني
: الشعر والشعراء	ابن قتيبة
: طبقات الشعراء	ابن سلام
: السيرة النبوية	ابن هشام
: الكامل	المبرد
: ديوانه	النايفه
: ديوانه	الخطيئة
: ديوانه	الأعشى
: ديوانه	زهير

ميزة المدح الجاهلي

لا يختلف المدح في صفاته العامة عن الفخر والحماسة ، فان الفضائل التي يفاخر بها الشاعر الجاهلي ، وينافس غيره من الشعراء والقبائل ، هي التي يمدح بها السادات والملوك شاكراً . أو متكسباً ، معترداً ، أو مستعظفاً ، لأنها خير ما يرى من حميد المزايا ومكارم الأخلاق ، في بدوه ، وفي حضره .

وإذا كانت السيادة تقتضي أصحابها أن يتحلوا بهذه الفضائل ، فخليق بالعشراء المداحين أن يجلوها على ممدوحهم كما يجتليها الشعراء الفرسان . وهي ، كما عرفناها في كلامنا على الفخر والحماسة ، تعزى إلى الغنى والكرم ، والشجاعة والحلم ، والفصاحة ، وتعتز بالنسب والعفة والوقار والتجدة ، والجوار وقرى الضيفان . فلم يغفل الشاعر عن هذه الأخلاق والصفات يضيفها إلى ممدوحه مبالغاً في التحدث عنها ، مبالغة الشاعر الفارس في المباهاة بها ، وان تكن حميتها عنده أخف منها عند الآخر ، لأن النفس التي تدفع إلى المدح والثناء غير النفس التي تندفع حماسة وفخراً .

ويختلف الشعراء في مبالغاتهم بين مقل أو مكثر ، ولكنهم لا يجنحون إلى الأصالة ، لأن طبع البدوي في صفاته ينفر من الغلو ، إلا إذا رانت عليه العاطفة في حزن أو حماسة ، فتخرج به إلى غاية الإغراق والكذب ، غير معتدل ولا متأثم . وقلما سمعنا شاعراً مداحاً في الجاهلية يغلو غلو النابغة في وصفه سيوف الغساسنة حيث يقول :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ،

وتوقد في الصفاح نار الحباب

أو في ذكره قدر ابن الجلاح الكلبي قائد الغساسنة ، زاعماً أنها تسع الجزور
بجملتها :

له بقاء البيت سوداء فخمة
تُلَقَم أوصال الجزور العُراير
بقية قدر من قدور توورثت ،
لآل الجلاح كابرًا بعد كابر

فهذه المغاليات مأنوسة في المفاخر والمراثي أكثر منها في المدائح ، ولكن تحول
الشعر إلى التكبسب ، جعل الشعراء يفرطون في تعظيم الأشراف والملوك تملقاً دم
واستدراراً لأكفهم ، وإن تكن السذاجة الفطرية لا تعدو تصوراتهم ، مثل وصف
النابعة للقدر التي تسع الناقة العظيمة ، أو مثل قول المثقب العبيدي حين مدح
النعمان ، فجعل الجبال ، إذا عصته ، تنقاد إليه طائعة بحبال من عند الله :

فلو علم الله الجبال عصينة ،
أتاه بأمراس الجبال يقودها

وينضاف إلى هذه التصورات الساذجة ما نسمع من مدح الأشخاص بنعالهم
وجودتها . فإن الأشراف ينتعلون السبت ، وهو الجلد المصبوغ ، فلا تأكله
الكلاب ، كما تأكل غيره من الذي لم يصبغ .

قال النجاشي الحارثي ، وهو من الشعراء المخضرمين ، يمدح هند بن
عاصم :

إذا الله حيا صالحاً من عباده ،
كريمًا ، فحيا الله هند بن عاصم
وكل سلوبي ، إذا ما لقيته ،
سريعٌ إلى داعي الندى والمكارم

العراعر : السمينة .
(١) كانوا لا يأكلون الأدمغة .

ولا يأكل الكلبُ السروق نعاهم ،
ولا تنتقي المخ الذي في الجماجم

ووصف عنترة عدوه بالشرف ، فقال فيه : « يحذى نعال السبت ليس
بتوأم . » ومدح النابغة الغساسنة برقة نعاهم ، ليدل على ملوكيتهم وترفهم ،
وانهم لا يخرجون من منازلهم إلا راكبين على خيولهم فما يحتاجون إلى لبس النعال
الغليظة :

رقاق النعال طيب حجراتهم ،
يجيون بالريحان يوم السباب

والنعال المصبوغة عزيزة المنال ، لأنها تصنع باليمن ، وتباع غالية الثمن ،
فلا يشتريها إلا السادات الموسورون ، فمدحوا بها لقله شيوعها عندهم ، ولو
شاعت ، لما صلحت ان تكون مادة للمدح .

ومثل هذا ما نرى من استنكار الاشراف لمآكل يجدون فيها غضاضة ،
فيبتعدون عنها ، ويأنفون من أكلها ، فيمدحون بهذه الصفة ، كما مدح النجاشي
هند بن عاصم ، لأن قومه لا يأكلون الادمغة ، وهي ليست طعام السادات
والمملوك : « ولا تنتقي المخ الذي في الجماجم » .

ومدحوا الذين يأكلون الخبز أو يطعمونه ، كما افتخروا بأكله ، لندورته في
البادية ، فما عرفه منهم الا الغني المتنعم ، ولذلك صح لأمية بن أبي الصلت ان
يرثي قتلى بدر من سادات قریش بقوله :

المطعمين الشحم ، فوق الخبز ،

شحما كالانافح (١)

ويؤثرون في الرؤساء عفة النفس عن الطعام ، وترك الشراهة ، بقدر ما
يؤثرون فيهم الاقبال على الضيفان والاكثار من القرى . وخير للكريم أن يبيت على

(١) الإنفحة : وتشدد كرش الحمل أو الجدي قبل أن يأكل فإذا أكل كرشا ، وهو الذي يستخرج من بطن
الرضيع أصفر فيعصر في صوفة فيغلظ كالجبين .

الطوى ، ويشبع ضيفه من اللحم واللبن ، فلا يشكو قلة .

قال الأعشى باهلة ، وهو عامر بن الحارث في رثاء المنتشر بن وهب الباهلي :

تكفيه حُرَّةٌ فَلُدِرَ إن أَلَمَ بها ،

عن الشواء ، ويروي شربه الغُمرَ

وحمدوا جوار شخص ، وذموا جوار آخر بمقدار ما يحسن أو لا يحسن قرى

جيرانه . قال حاتم الطائي يمدح بني بدر ، وكان قد جاورهم في زمن شدة

وحرب ، فحمد جوارهم :

إن كنتِ كارهةً معيشتنا

هاتي ، فحلي في بني بدر

جاورتهم زمن الفساد ، فنعم

الحي في العوصاء واليسر

ومن هنا مدح الكرام بنيرانهم وكلابهم ورمادهم . فالنار توقد ليلا هداية

الضيغان ، ولا يوقدها الا السخي الجواد الذي يكثر رماده لكثرة طبائخه . قال

الخطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره ،

تجد خير نار عندها خير مُوقد

والكلاب تنبح لتهدى الطارق الى المنزل ، ولكنها لا تنبح في وجهه إذا

أقبل ، قال حسان بن ثابت في الغساسة :

يُغشون ، حتى ما تبهر كلابهم ،

لا يسألون عن السواد المقبل

ويعرف السادات بالضيافات ، اذا اشتد البرد على الفقراء في أسماهم

البالية ، وحطمتهم السنة الشهباء ، فأخلف الربيع ، وكلب الجوع ، فازدحموا

على أبواب الأغنياء يرجون خيرهم ، فتنحرف لهم الابل وتوقد النار ، فيجدون فيها الدفء والشواء ، حتى ينزل السحاب بغيث الرحمة ، وينشر الربيع ملاءته المختلفة الالوان ، فتفيض الغدران ماء ، وأخلاف النياق لنا ، وينتعش الانسان والحيوان . وإلى هذه الضيافات المحمودة يشير زهير في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،

ونال كرام المال في الجحرة الاكل

رأيت ذوي الحاجات ، حول بيوتهم ،

قطينا بها ، حتى اذا نبت البقل

هنالك أن يُستَخبِلوا المال ، يُجْبَلوا ،

وان يُسألوا يُعطوا ، وان ييسروا يُغْلوا

وحقيق بهذه الضيافات أن تعد من الأعمال الإنسانية النبيلة ، وأن تقاضى الإشراف ثمنها مدحاً وفخراً ، فإن العناية بالفقراء ، ورد غائلة الجوع عن العجز والمرضى يلطفان من جو التبجح والأنانية ، وتبخّر العنجهية فلا يبقى منها إلا فضيلة الجود والمؤاسة .

والشعراء يعلمون أن السياسة القبلية تجعل الأشراف يحرصون على الانتساب الى هذه الفضيلة لأنها تؤيد منزلتهم الاجتماعية ، وتكسبهم عطف عشيرتهم ، وتنشر ذكركم في القبائل الغربية . فزاهم لا يغفلون عن الأطناب بها في مدائحهم ، كما لا يغفلون عن غيرها من فضائل الرئاسة كالشجاعة والحلم والفصاحة ، فيبالغون في انتصارات المدوح ، وحسن طالعهم في الحروب ، وحلمه على ابناء عمه ، وفضه مشاكل القبيلة برأيه وماله . قال زهير :

وان جئتهم ، ، ألفت حول بيوتهم

مجالس قد يُشفى بأحلامها الجهل

يستخبِلوا : يسألوا الاعارة . يغْلوا : يختاروا سنان الابل ليقامروا عليها .

وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعد :

رَشَدْتَ فلا عُرمَ عليك ، ولا خذُلُ ١

وقال في مدح هرم :

قد جعل المتبتغون الخيرَ من هرمٍ
والسائلون الى أبوابه طُرُقًا
أن تلقى يوما على عِلاتِه هَرَمًا ،
تلقى الساحة منه والندی خُلُقًا
وليس مانعَ ذي قُربى وذی رَجِم
يوما ، ولا مُعدِمًا من خابطِ وِرَقا
ليث تعَثَرَ يصطاد الرجال إذا
ما كذَّب الليث عن أقرانه ، صدقا
يطعنهم ما ارتَمَوْا ، حتى اذا اطَّعنوا
ضارِبٌ ، حتى اذا ما ضاربوا ، اعتنَّقا ٢
هذا ، وليس كمن يعيل بخطته ،
وسط الندي ، اذا ما ناطقَ نطقًا ٣

ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد هذه الفضائل عن مدح سادات القبائل .
فإن الشعراء الذين مدحوا الغساسنة والمناذرة أفاضوا في ذكر حروبهم
وانتصاراتهم ، وجودهم وضيافاتهم ، وحلمهم وهيبتهم في النفوس . لان ملوك
الشام والعراق لم يتعدوا بذهنيتهم عن سيد القبيلة ، وان أصابوا طرفا من
الحضارة . فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء يصلح أيضا لأمير جلق
والبريص ، ولرب الخورنق والسدير .

(١) الحامل : من حمل الديات ، حق القائد . أصبت : لن نجعل الغرم عليك ولن نخذل . الخابط :
طالب المؤن . الورق : المعروف ، أصله من قرب ورق الشجر ليعلفه الدواب . كذب : لم
يصدق الحملة ورجع عن قرنه .
(٢) يزيد عليه في الحرب بكل شيء . اعتنق قرنه .
(٣) وصفه بالبلاغة موضع أو قصر .

وكان ملوك غسان يقربون شعراء البادية ويجزلون لهم الصلوات ، يتغنوا بعظمايتهم في الأحياء القريبة والبعيدة ، فيتمكن سلطانهم في نفوسها ، وينبسط نفوذهم على عشائرها ، لأنهم كانوا يحتاجون الى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم وحراسة قوافلهم ، ففضت عليهم السياسة بتقريب شعرائها ، واکرامهم ، للاستفادة من مدائحهم وسيرورة اشعارهم ، كما قضت عليهم بذلك ذهنية العربي في ارتياحه الى الحمد والثناء . فمدحهم الشعراء مثل مدحهم لسادات قبائلهم ، وأضافوا عليهم سوانغ الاوصاف التي تعودناها منهم تحت الخيام . واذا كان من خلاف بين المدح البدوي والمدح الحضري ، فانما هو يقتصر على صفات لا توحى بها خيمة الاعرابي وطلله ، ولا حياته الاجتماعية ، كوصف النابغة للفرات في مدح النعمان ، وتشبيه عظمته بعظمة سليمان ، او ذكر القصور المنيفة في المدن والعواصم كقول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال الأسود بن يعفر في آل محرّق وبني آباد :

ماذا أوّمل بعد آل مُحْرِق

تركوا منازلهم وبعده إباد

أهل الخورنق والسديرَ وبارق

والقصر ذي الشرفات من سنداد

وقول الأعشى يمدح أياس بن قبيصة الطائي ، وكان من أشرف الحيرة ،

يتولى أمرها بعد انهيار عرش المناذرة :

فما نيل مصر اذ تسامى عبابه ،

ولا بحر بانقيا ، اذا راح مفعبا ١

البريص : موقع من ناحية دمشق . سنداد : منازل بين إباد وراء نجران الكوفة .

١) بانقيا : ناحية من نواحي الكوفة على شاطئ الفرات . حجم : أحجم .

بحري : خالص الدم .

بأجود منه نائلا ، أن بعضهم ،
إذا سئل المعروف صدّ وجمجا

وكذلك المدح الديني ، فإن البدوي لم يعدّ العبادة من الفضائل التي يصح
أن يفاخر أو يمدح بها ، لضعف عقيدته وفتور إيمانه . ولكن النابغة عندما دخل
الشام ، وشهد الغساسنة النصرى يتعصبون لديانتهم ، ويباشرون الحفلات
الكنسية في الأعياد الكبرى بأنفسهم ، تنبه الى مدحهم بما لم يمدح به سواهم حين
قال :

بحلتهم ذات الاله ، ودينهم
قويم ، فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال ، طيب حُجْرَاتُهُمْ ،

يحيون بالريحان يوم السباب

تحبيهم بيض الولائد بينهم

واكسية الاضريح فوق المشاجب

وكانوا يعتقدون أن دم الملوك غير دم السوقة ، فجعلوا فيه خاصة غريبة
تشفي من داء الكلب . قال المثقب العبدى يمدح عمرو بن هند :

باحرّي الدم ، مرّ طعمه ،

يبرىء الكلب اذا عضّ وصرّ

وقد يتخذ الشعراء هذه الخاصة الناجعة للمفاخرة بأنسابهم كما قال
الفرزدق :

فلو شرب الكلبى المراض دماءنا

شفتها ، وذو الخبل الذي هو أدنف

ويتخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير . كما نجد عند النابغة
والأعشى ، فنستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم الى المدن

والأمصار ، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة . فشاعر بني ذبيان يتحدث في مدح
النعمان عن عظمة الملك سليمان وتسخيره الجن لبناء تدمر ، ويأتي على ذكر زرقاء
اليامة وصدق نظرها في عد الحمام .

وشاعر بني بكر يروي لشريح بن السمؤال خبر وفاة أبيه ، وكيف اختار أن
يقتل ولده حفاظا على دروع جاره . ويقص خبر الحضرمي وفتح سابور له في مدحه
لقيس بن معدي كرب :

ألم تري الحضرمي ، إذا أهله
بنعمي ، وهل خالدٌ من نَعَمٍ ؟
أقام به شاهبورُ الجنودَ ،
حولين يضرب فيه القدمُ

وأمية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن ، ويذكر خبر استنجاده
بكسرى ، حتى أخرج الجيش من اليمن :

ليطلب الوترَ أمثال ابن ذي يزن
في البحر ، خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقلًا ، وقد شالت نعمتهم ،
فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة
من السنين ، يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد
أضحى شريدهم في الأرض فلألا

الحضرمي : قرب نكريت بين دجلة والفرات بناه رجل من قاعة ملك على الجزيرة وأغار على بلاد الفرس
فأخذ أخت سابور فغزاه وخانته بنته النصيرة . القدم : جمع قديم الناس .
غمدان : قصر باليمن .

فأشرب هنيئاً ، عليك التاج ، متكئاً ،

في رأس غمدان دارا منك محلاً

ومما يحمد عليه الشاعر الجاهلي أنه حافظ على كرامته في مدح الملوك والسادات ، فلم يتذلل لهم وهو في أشد الحاجة الى ردهم ومعروفهم ، أو عطفهم ومساعدتهم . ولم نجد شاعراً حط من نفسه غير النابغة في اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

فان اك مظلوما ، فعبدا ظلمته ،

وان اك ذا عتبي ، فمثلك يعتب

وعبر الخطيئة في تصوير بؤسه وضعفه وفي متاجراته الدنيئة بأعراض الناس . ومع أن الأعشى اتخذ الشعر تجارة فلم ينحدر به الى الدنيا ، ولا بذل ماء وجهه لممدوحيه . وكذلك عدي بن زيد العبادي لم تغضض منه اعتذارياته الى النعمان ، وكان سجيناً عنده لا طليقاً كالنابغة ، وان بدا عليه الألم المرير حين يرينا نفسه مكبلاً بالحديد ، مرتدياً ثياباً بالية ، فهو يحافظ على عزة نفسه وكرامة محتده ، ولا يخشى أن ينافس أبا قابوس بالمجد والفضل ، فيذكره بما له ولا يبه من النعمة عليه وعلى والده . ويذكره بالمصاهرة والمودة ، وانهم كانوا قبلهم ملوكاً ذوي سلطان :

نحن كنا ، قد علمتهم ، قبلكم ،

عمد البيت ، وأوتاد الأصار

ويستهل شعراء الجاهلية مدائحهم في الغالب ، بذكر الديار الخالية والوقوف عليها ، للبكاء أو للتحية والسؤال ، معددين المواضع التي توصل اليها أو تحيط بها ، متشوقين الى أحببتهم يوم كانوا يعمرونها ، مشبيين بهم ، مشيدين ذكرى فراقهم . ثم يرحلون على ناقتهم مفرجين همهم ، قاصدين الممدوح ، فيصفونها عضواً عضواً ، ويصورون سرعتها ونشاطها ، ثم ينتقلون الى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الشريف أن يراعي حق الشاعر في قصده اليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والتعب ، ويرى الليل ولفح السجوم .

وربما جعل ناقته تنظلم شاكية ما يحشمها من مشقة الاسفار ، وشد الحبال ،

وفي ذلك ما فيه من استعطاف الممدوح ، ويجاب حقه عليه . قال المثقب
العبدى :

إذا ما قمت أرحلها بليل ،
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول ، إذا درأت لها وضيئي :
أهذا دينه أبدا ، وديني ؟
أكل الدهور حلّ وارتحال ،
أما يبقي على وما يقيني ؟

وشكت ناقة الخطيئة في مدحه الأعور ، وهو الحارث بن عبد يغوث ،
فمناها جزيل العطاء وطيب الثواء ، كأنه يخفف من المها ، ويسليها عن همها ،
وانما هي براعة الطلب ، وحسن تقرير المصير قال :

شكت العنتريس نصي وإولاجي
على ظهرها ، وشدّ الحبال
لا تشكّي إنسي ، وانتظري الأعور
رحب الفناء ، جزل التوال

وقد تلوم المرأة زوجها أو البنت أباهما على كثرة ترحاله ، خائفة عليه ، فيسكن
من جأشها ، ويهون عليها ، ويعدها بالثروة . قال الأعشى :

تقول ابنتي ، حين جداً الرحيل :
ارانا سواء ومن قد يتيم
فيا أبتا ، لا ترم عندنا ،
فأنا بخير ، إذا لم ترم ١
ويا أبتا ، لا تزال عندنا ،
فأنا نخاف بأن تحترم

درأت : دفعت . الوضين : ضرام الهودج . الدين : العادة والدأب .
(٢) استخراج أقصى ما عند الناقة من السير .
لا ترم : لا تبرح . النبيط : جيل من الاعاجم كانوا يسكنون العراقين .

أرانا ، اذا أضمرتك البلاد ،
 نجفى ، وتقطع منا الرجم
 أفي الطوف خفت عليّ الردى ؟
 وكم من ردّ أهله لم يرم
 وقد طففت للمال آفاهه :
 عُمان ، فجمص ، فأورى شلم
 أتيت النجاشي في أرضه ،
 وأرض النبيط ، وأرض العجم
 وقد تكون المرأة رفيقة له في السفر وطلب الرزق ، فيدفعها أمامه ، ويسير
 بها الى عمدوحه فعل الخطيئة :

سيري ، أمام ، فان الاكثرين حضى
 والأكرمين ، اذا ما ينسبون ، أبا
 قوم هم الأنف ، والأذئاب غيرهم ،
 ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا ؟

وشعراء المديح في الجاهلية كثر ، يتشابهون في نواح من معانيهم وتعابيرهم ،
 على ما بينهم من اختلاف الطوايع الخاصة . فنكتفي منهم بشاعرين اجتمعت
 لاحدهما ميزة مدح السادات ، وهو زهير بن أبي سلمى ، والآخر ميزة مدح
 الملوك ، وهو النابغة الذبياني ، فكلاهما مثال صالح لدراسة هذا النوع من الشعر
 السياسي على أكمل وجوهه .

مراجع :

الجاحظ : البيان والتبيين
 ابن رشيق : العمدة
 ابن قتيبة : الشعر والشعراء
 ابن سلام : طبقات الشعراء
 المبرد : الكامل
 بطرس البستاني : ادباء العرب .

زهير بن أبي سلمى

حياته :

لم يسلم زهير من الخلاف في نسبه ، شأنه شأن غيره من شعراء الجاهلية كالنابغة والحطيئة والشنفرى وسواهم . فقد جعله ابن قتيبة في غطفان ، مع أن ابن الأعرابي وابن الكلبي وأبو الفرج وسواهم يردونه إلى مزيّنة ، ويقولون إنه نزل أرض غطفان وتزوج منهم ، وأقام فيهم . وحجة ابن قتيبة في دفع نسبه عن مزيّنة انه ليس له ولابنائه بيت شعر يتمون فيه إليها إلا بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هم الأصل مني حيث كنت ، وانسي
من المزيّنين المصفيين بالكرم

وكان مزرد بن خرار الغطفاني قد دفع نسب كعب في غطفان ، وردّه إلى مزيّنة ، فلم ينكر كعب عليه زعمه ، بل أثبت شعره انه منها . ويشرح ابن سلام ذلك بقوله : « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل إلى قبيلة غير التي هو منها إلا قال : « أنا من الذين عنيت . » فيستدل من كلامه أنه يشك في مزيّنة كعب ويقول أيضاً : « وكان أبو سلمى وأهل بيته في بني عبد الله بن غطفان ، فيهم يعرفون ، وإليهم ينسبون . » ثم يقول : « ولقد أخبرني بعض أهل العلم من غطفان أنهم من بني عبد الله بن غطفان ، وإن اعتزاه إلى مزيّنة كقول هؤلاء ، وإما العامة فهو عندهم مزيّني . »

فانتفاء كعب إلى مزيّنة ، بحسب هذه الرواية ، كانتفاء الذين ينسبون إلى قبائل غريبة ، فيقولون : « أنا من الذين عنيت . » ولكن ابن سلام مع ما ألقى من شك على نسب زهير في مزيّنة ، لم يسعه إلا أن يجاري العامة ، عند ذكر اسمه

ونسبه ، فجعله من المزيين . ونرى أن روايته عن الغطفاني لا تسلم من الجرح : فليس من الغريب أن تدعي غطفان شاعراً مشهوراً كزهير ، عاش مجاوراً لها ، يمدح سـ . ، ويدافع عنها أصدق دفاع .

وقال ابن عبد البرّ في الاستيعاب : « وكان محلهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه من غطفان ، أعني زهيراً ، وهو غلط . »

ولم يصل إلينا شعر كثير عن كعب ، ولا عن غيره من ولد زهير وحفدائه لنجد في أقوالهم ما يدل على نسبهم ، سوى هذا البيت وبيت آخر لأخيه بُجير يقول فيه : وألف من بني عثمان وادٍ ، والمراد عثمان بن مزينة . رواه ابن سلام وقال : « وقد يجوز أن يكون يعني غير قومه من المزيين . » ولعل اختلاطهم بغطفان في السكنى والزواج هو الذي صرفهم عن التفاخر بمزينة ، كما صرف والدهم زهيراً من قبل . فإن أشعاره ، على كثرتها بالإضافة إلى أشعارهم ، لا تهدي روايتها إلى أصله ونسبه ، بل نجدتها تشتمل على مناقب مرة وساعي غطفان ، يمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويرد على أعدائهم منافحاً عنهم ، كأنه بعض أبنائهم ، ولا عجب فقد نشأ فيهم ، وعاش بينهم ، واصهر إليهم ، وأمه منهم فهم أخواله . ونعلم من الرواة أن صلته ببني مزينة كانت واهية منذ عهد أبيه . فإن أبا سلمى هجر قبيلته واجداً عليها . وأقام في غطفان متزوجاً إليها . ذكر صاحب الأغاني أن زهيراً وولده كانوا مجاورين في بني عبد الله بن غطفان ومنزله معروف بالحاجر ، وأخوالهم غطفانيون من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وإن خال أبي سلمى يقال له أسعد بن الغدير بن مرة ، وله ابن يقال له كعب . ويروي ابن الأعرابي أن أبا سلمى تزوج إلى رجل من بني مرة يقال له الغدير ، وهو أبو شامة الشاعر . فولدت له امرأته المريّة زهيراً وأوساً . فمن هاتين الروايتين نتبين مبلغ اشتباك الوشائج بين آل مرة وبيت زهير على ما بين الغدير وأسعد بن الغدير من التباس في الاسم والقربى ، فإن أحدهما خال أبي سلمى ، والآخر جد ابنه زهير ، وكلاهما من مرة بن ذبيان . ويخبرنا ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني عن السبب الذي من أجله انقطع أبو سلمى عن مزينة بعد رجوعه إليهم ومصارمته غطفان ، وهو انه خرج وخاله أسعد بن الغدير وابن خاله كعب في ناس من بني مرة يغيرون على طيء ، فأصابوا نعمة كثيرة وأمواً ، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم . فقال أبو سلمى لخاله

أسعد وابن خاله كعب : أفراداً لي سهمي . فأبيا عليه ، ومنعاه حقه ، فوجد في نفسه عليهما ، وأنف أن يبقى فيهم ، فخرج بأمه ليلاً إلى قومه بني مزينة ، وأقام فيهم حيناً من الدهر . ثم أقبل بمزينة مغيراً على بني ذبيان ، حتى إذا أسهلوا وابتعدوا عن ديارهم ، ونظروا إلى أرض غطفان تطايروا من أبي سلمى من الجزع ، راجعين إلى أرضهم ، وتركوه وحده . فلما رأى منهم ذلك آثر أخواله عليهم ، فعاد إليهم وجاور بني عبد الله بن غطفان ، فنشأ ابنه زهير فيهم تعطفه الخؤولة من ذبيان ، ولا تهزه العمومة من مزينة ، فمال بشعره إليه يمدحهم ويذود عنهم ، حتى شك فيه ابن سلام ، وجزم ابن قتيبة ، فجعله منهم ، ونكر نسبه في المزنيين .

ولم يكن بنو ذبيان أقل اعتداداً به وحداً عليه من اعتداده بهم وحده عليهم ، فبروه وأكرموه ، ورفعوا قدره ، واتخذوه حكيمهم ومرشدهم ، يستنرون بأرائه ، ويهتدون بمواعظه ، ويأبون إلا أن تكون شاعريته منهم وفيهم . روي أن زهيراً كان منقطعاً إلى خاله بشامة بن الغدير ، لإعجابه بشعره . وكان بشامة رجلاً مقعداً ، ولم يكن له ولد . وكان كثير المال ، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبني إخوته . فأتاه زهير يطلب نصيبه . فقال له : « والله يا بن أختي ، قسمت لك أفضل ذلك وهو شعري ورثتيه . فعجب زهير ، واعترض على خاله ضنا بشاعريته أن يعتد بها عليه . فقال له بشامة : « من أين جئت بهذا الشعر ، لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ؟ وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحي من غطفان ، ثم لي منهم ، وقد رويته عني . » واعطاه نصيباً من ماله ومات .

فبشامة ينكر الشعر على بني مزينة ، لأنه لم يُعرف فيها شاعر قبل زهير والده ربيعة ، وهذان أخوالهما من بني مرة . وقد عرف من المرين شعراء مشهورون كالنابغة ، وبشامة بن الغدير ، والحصين بن حمام ، والحارث بن ظالم وسواهم ، فإذا ادعى بشامة أن شعر ابن أخته تراث منه ، فقد يكون على حق في دعواه . وإذا ادعته ذبيان ، فلا ينكر عليها ذلك ، وقد نشأ فيها ، ولزمها ، ووقف شعره عليها .

ولم يجتمع لشاعر في الجاهلية حظ من الشعر ، كما اجتمع لزهير . فقد كان أبوه ربيعة شاعراً ، وخاله بشامة شاعراً ، وأخته سلمى والخنساء شاعرتين ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وحفيده عقبة بن كعب الملقب بالضرَب شاعراً ، وابن حفيده العوام بن عقبة شاعراً . وكان زوج أمه أوس بن حجر شاعراً مشهوراً فروى له زهير ، وقال الشعر ففاقه وأخل ذكره .

وأقام زهير في بني مرة مكرماً مسموع الكلمة ، وكثر ماله ، وتزوج امرأة تكنى أم أوفى ، ثم جمع بينها وبين ضرة يقال لها كبشة بنت عمّار من غطفان ، فولدت له كعباً وبجيراً . فغارت أم أوفى منها لأن أولادها ماتوا ، وأخذت تسيء إلى زهير حتى طلقها ، ثم ندم فقال فيها :

لعمرك ، والخطوب مغيرات ،
وفي طول المعاشرة التقالي
لقد باليت مظعن أم أوفى
ولكن أم أوفى ما تبالي
فاما إذا نأيتِ فلا تقولي
لذي صهرٍ : اذلت . ولم تذالي
أصبت بنيّ منك ، ونلت مني
من اللذات ، والحُلل الغوالي

ولبت يذكرها في شعره كلما خطرت له في بال ، فمن ذلك قوله في المعلقة وهو شيخ طاعن في السن :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدرّاج فالتملم

على أنه لم يسلم من لسان أم كعب ، فكانت تلومه وتهدهه بالقطيعة ، وتتهمه بأنه يعيبها ويجفوها . فكان يلاطفها ويسكن حردها . وفي ذلك يقول :

وقالت أم كعب : لا تزرنني ، فلا والله ، مالك من مزار

رأيتك عبتني وصدت عني ،
فكيف عليك صبري واصطباري
فلم أفسد بنيك ، ولم أقرب
إليك من الملهمات الكبار
أقيمي ، أمّ كعب ، واطمئني ،
فانك ، ما أقميت ، بخير دار
وعاش زهير عمراً طويلاً بلغ به التسعين أو نيف عليها . وتدلنا المعلقة على
أنه كان في الثمانين يوم نظمها لقوله فيها :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش
ثمانين حولاً ، لا أبا لك ، يسأم

وهذه القصيدة انشئت بعد أن وضعت حرب داخس والغبراء أوزارها ، أي
في نحو سنة ٦٠٨ أو ٦١٠ كما يستدل من أخبارها على اختلاف الروايات ، فتكون
ولادة الشاعر مجاورة سنة ٥٣٠ مسيحية . وروي له بيتان يذكر فيها أنه بلغ من
العمر ثمانين سنوات ومائة ، وهما ، بلا ريب ، منحولان ، وأثر التوليد عليهما
ظاهر قال :

بدا لي أن الله حق ، فزادني
إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
بدا لي اني عشت تسعين حجة
تباعاً ، وعشراً عشتها ، وثمانيا

وغير معقول أن يكون زهير قد عاش إلى سنة ٦٣٨ (١٧ هجرية) ، دون
أن يأتي الرواة على ذكره في كلامهم على ولديه كعب وزهير بعد إسلامهما ، وليس
مثله من ينسى . وقد أسلم بجير في أواخر السنة السابعة للهجرة ، وكعب في السنة
التاسعة .

وروى صاحب الأغاني أن النبي نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال :
« اللهم أعذني من شيطانه . » فما لأك بيتاً حتى مات . فإذا صحت هذه الرواية ،

فيكون زهير أدرك سنة ٦٣٠ ، أي التاسعة للهجرة . (وقد اعتمد المستشرق ذو برسفال هذا الخبر وجعل تاريخه سنة ٦٢٧ ، أي السنة السادسة للهجرة ، قبل إسلام بجير بسنة واحدة فما تعدى به الظن والتخمين .) وذكر البغدادي في خزانة الأداب أن زهيراً توفي قبل البعث بسنة ، أي نحو سنة ٦١١ م . فإذا صحت روايته ، ولا ندرى مستندها ، فيكون زهير قد بلغ من العمر إلى الواحدة والثمانين ، وتكون رواية الأغاني باطلة . ومهما يكن من شيء فإن الشاعر كان من المعمرين ، ومات على جاهليته ، سواء أدرك البعث أم لم يدركه . ويرجح أنه مات قبل إسلام ولديه .

شعره :

انتهى إلينا طائفة صالحة من شعره ، وفيها معلقته المشهورة التي قالها بعد حرب داحس والغبراء . وليس لدينا شعر منه قاله في أثناء هذه الحرب ، محرضاً بني ذبيان أو راثياً الفرسان الذين قتلوا فيها ، شأن شعراء القبائل في مثل هذه الحال ، وقد مر به أعظم حادث روّعت له القبيلة ، فكانت مجزرة أهلية ، فجعت بني ذبيان بخيرة رجالها ، فقتل من بني فزارة حذيفة بن بدر وأخوه جمل ، ومن بني مرة ضمضم وابنه هرم ، ما خلا غيرهم من الأشراف والفرسان . فلماذا سكت زهير عن رثائهم وتحريض القبيلة على الأخذ بثأرهم ؟ ألعل هذا الشعر ضاع فلم يصل إلينا ؟ أم لعله لم ينظم شيئاً فيهم ، لأنه كان كارهاً هذه الحرب التي اشتعلت نارها لسبب تافه ، وهو الشاعر الحكيم الذي يسعى لخير القبيلة ، ولا يرى لها أن تتورط في حرب مشؤومة تفانت فيها بنو غطفان : ودقوا بينهم عطر منشم ، على حد تعبيره . فلم يشأ أن يؤرث جمة الأحقاد بندبه وتحضيضه ، بل كان يرجو أن يقوم من عقلائهم من يسعى إلى الصلح ، حتى تجند له هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّيان . فمدحهما وشكر صنعهما ، وأشاد بذكرهما . فزهير شاعر قبلي لم يتأخر يوماً عن مقاومة الأعداء الغرباء وتهديدهم ، إذا آنس منهم إعتداء على بني غطفان ، ولكنه لم يكن من أنصار تلك الحرب الأهلية بين عيس وذبيان ، فسكت ، كما يظهر ، عن رثاء الأبطال المقتولين لثلا يوغر الصدر وينكأ الجراح قبل اندمائها ، ولكنه مدح السيدين اللذين أصلحا بين المتحاربين وتحملاً ديّات

القتلى ، فخص بهما المعلقة وغير المعلقة . وله في هرم عدة قصائد خلدت ذكره وذكر أبيه سنان . روي أن عمر بن الخطاب قال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن ، والله ، إن كنا لنحسن له العطاء ! فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم . وذكر الهيثم بن عدي أن عائشة قالت لبعض بنات زهير : ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ قالت : أبلاها الدهر . لكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر . والروايتان ترميان إلى غرض واحد ، وهو تعظيم مدح زهير وتبيان ماله من فضل على ممدوحه .

ومعلوم أنه لا يذكر زهير في شعراء الجاهلية إلا ذكرت معه الروية والرزانة والحكمة ، وبدا لنا منه شاعر متعاقل لا تنطوي حياته وطباعه على شذوذ غير مألوف في نظام الاجتماع . وجاءت أقوال المتقدمين فيه وصفاً لما يبدو من أخلاقه في شعره ، وتفضيلاً لهذا الشعر بهذه الأخلاق . فقد نسبوا إليه الحوليات ليظهِروا رويته واناته في تنقيح شعره ، فقالوا إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهدبها في أربعة ، ويعرضها على أخصائه في أربعة . وقالوا فيه : هو أشعرهم لأنه لا يعاظم في الكلام . ويريدون بذلك تنزيل ألفاظه على ما يقتضيه قانون الشعر عندهم ، أي ليس فيه تداخل ولا تضمين يجعل القافية متعلقة بما بعدها . وسموه قاضي الشعراء كما يقول ابن رشيح من أجل هذا البيت :

وإن الحق مقطعه ثلاث : عيين ، أو نفار ، أو جلاء

وقدموه على غيره لأنه صاحب من ومن ومن ، وهي أبياته المشهورة في الحكم . فمنزلة شعره تستند عندهم إلى رجحان عقله وحبه للخير والسلام ، لا إلى جوهر الشعر نفسه .

وقد كان زهير ، كما عرفوه ، قاضياً يصلح بين المتخاصمين وحكماً ينصح الناس ويرشدهم ، ويدعوهم إلى العمل الصالح . وفي شعره أمثلة كثيرة تدل على عنايته بخير مجتمعه القبلي وتقويم أخلاقه . وجميل بالشاعر أن يكون له هدف إصلاحية يتجه إليه ، وإن كان الفن يستوحى الحياة على إطلاقها . ويجد كل ناحية

صالحة لأن تكون له مادة وصورة . فالشاعر عضو في مرافق الجماعة الإنسانية ، له رسالة سامية يبلغها بجمال فنه ، وما فيه من بهجة للنفوس وإرهاب للعواطف ، ولكن من الخير أن يجتمع إلى جمال الفن جمال الغاية ، فيستطيع الشاعر أن يضيف إلى رسالته الأدبية رسالة الإصلاح ، وهذا قلما تأتي لشاعر يعتمد أحكام العقل والمنطق فينصرف إلى سنّ القوانين الخلقية ، وضرب الأمثال فتغلب عليه صفة المعلم الاجتماعي ، كما غلبت على زهير ، لأن طريق الشعر في تطهير الأخلاق غير طريق الوعظ والخطابة . على أن الشاعر يمكنه أن يؤدي رسالته الإصلاحية بأن يكون إنسانياً في شعره ، فيتصور الخير والجمال دمي في خياله ، ويحسها إحساساً بليغاً في أعماق نفسه ، حتى إذا أصبحت جزءاً من حياته ، أو ذاتاً من ذاته أخرج عنها صوراً وأنعاماً متعددة الألوان ، مؤتلفة الأجزاء تتحرك فيها عناصر الحياة بما نفحها الشاعر من إحساسه ونفسه ، فيتراءى الخير في جماله ، والشر في قباحته ، وترضى الأخلاق ، ولا يغضب الفن .

زهير في شعره يعتمد ، في الغالب ، أحكام العقل والمنطق ، ويطلب الإصلاح بطريق الوعظ وضرب الأمثال . فيأتي شعره صلباً جافياً لا ماء فيه ولا رونق ، شأن كل عمل تغلب العقل فيه على الشعور والخيال .

وهذا لا يعني أننا نحاول النيل من لغة زهير وبلاغته ، فهو كسائر الجاهليين مستطيل على الألفاظ والتراكيب . وتمتاز لغته بشدة أسرها ، ودقة أحكامها ، خاصة عرف بها شعراء مضر لأعراقهم في البداوة ، وبعدهم عن الأمصار . ولكن لغته بروحها واتجاهها ونفها لغة خطابية منطقية تصلح للشعر الاجتماعي الذي يتصل بالعقل أكثر منه بالخيال والعاطفة ، وفيها اعتماد ملحاح على المادة لإظهار الحقائق واضحة ملموسة ، على منطق راجح وحب إقناع . وحسبنا أن ننظر إلى عنايته بتبيان مغبة الحرب في صور محسوسة بارزة الخطوط ، وإلى مجادلاته ومواعظه وأمثاله بغية الإقناع ، ثم إلى فحصه عن مادة اللون وصورته :

غلون بانمط عتاق ، وكلية

وراد حواشيها ، مشاكهة الدم

لنعلم مبلغ تعلقه بالحقائق على ما يرتضيه المنطق ويقبله العقل ، حتى أن

المتقدمين في تفضيلهم إياه كانوا من أنصار العقل في الشعر فمدحوه بقولهم :

« إنه كان واضح الغرض ، لا يقول إلا ما يعرف . »

فمادية زهير ، واعتماده على ما يعرف من الحقائق جعلاً لشعره واضح الغرض ، ويكفي القارئ أن يفهم ألفاظه الغريبة ليستولي على أفكاره ومقاصده ، لا أمثاله وآرائه وحدها ، بل الأشياء التي يتناولها وصفاً وتصويراً ، فإنه لتدقيقه في جلاتها جعلها ناتئة الملمس ، خالصة من الغموض ، على ما فيها من جمال الصورة ، وبلاغة التعبير :

بكرن بكورا ، واستحرن بسحرة ،

فهن ووادي الرس كاليد في الفم

فزهير في حكمه وأمثاله وجدله ومواعظه شاعر حكيم وخطيب اجتماعي ، وقاض يرشد ويصلح . ومنظوماته في كثرتها ليست من الشعر الخالص ، وإن كان لا يعدوها جمال العبارة وحسن التصوير . وربما وجدت فيها برودة وجفافاً يتمثل بها صاحبها الوقور الهادي الرصين ، حتى أن غزله في هدوئه وصلابته لا يثير عاطفة ولا يحرك قلباً . يصرف عنايته إلى ذكر الديار الخالية ، ووصف فراق الأحبة ومرافقة الطعائن في انتقالها من مكان إلى آخر ، وقلما وصف الحبيبة وأظهر محاسنها ، فغزله في جملة يدل على أن صاحبه قد تقدمت به السن ، قاله في حرب داحس والغبراء أو بعدها ، فهي ذكريات شيخ يمن إلى امرأته أم اوفى التي طلقها أو يأسف لأن العذارى أصبحت تناديه يا عمي بدلاً من أن تناديه يا أخي ، وهذا ما أسف له الأخطل من بعده :

صحبا القلب عن سلمى وأقصر باطله ،

وعري أفراس الصبا ورواحله

واقصرت عما تعلمين ، وسُدَّت

علي ، سوى قصد السبيل ، معادله

وقال العذارى : إنما أنت عمنا

وكان الشباب كالحليط نزايه

فأصبحت ما يعرفن الا خليقتي

والاسواد الراس ، والشيب شامله

ويمكن القول أن اكثر أغراض الشاعر ومقاصده تمتاز بالرصانة والهدوء

والتعقل ، وتترع الى الجدل وتوخي الحقائق المادية المجسمة .

شعره السياسي

مدحه :

إذا كان لزهير في مختلف أغراضه أشياء حسان ، فخير شعره ما قاله في مدح سادات ذبيان ، والدفاع عن القبيلة وارشادها ، واسداء الحكم الاجتماعية في حسن السياسة ومكارم الاخلاق . فمدائحه خير مثال لاسلوب المدح الجاهلي ، تظهر فيها مناقب الأشراف والفرسان وفضائلهم على ما فيها من عنجهية وتكاثر واعتداد . فان زهيرا لم يتصل بملوك الشام والعراق ليشتمل شعره على صفات أصحاب القصور ، ولا وفد على القبائل الغربية يمدحها ليخرج بشعره عن الصفة القومية التي ينتمي اليها بل مكث في بني ذبيان يخلصهم بمدائحه واراته ونصائحه . ويقارع اعداءهم شأن أمثاله من الشعراء القبليين الذين يوجهون أشعارهم شطر مجتمعاتهم لصالحه ومنفعته ، فيبذلون له ما في وسعهم اسوة بغيرهم من أبنائهم العاملين . ونعرف من الأشخاص الذين مدحهم من بني مرة سنان بن أبي حارثة ، وولده هرم ، والحارث بن عوف ، ومن بني بدر حصن بن حذيفة . ونستثني مدحه للحارث بن ورقاء الصيدايوي ، فإنه ثناء أسداه اليه أثر هجاء ، بعدما رد عليه عبده يسارا .

وأكثر مدائحه وأفضلها ما قاله في هرم بن سنان ، لأنه كان شديد الحب له . وكان هرم يبهره يجزل العطاء ، وإن تكن مدائحه في الآخرين يعدوها الجمال ، ولا يقل أصحابها عن هرم شرفا وسؤدا . فالحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وهو الذي سعى بالصلح بين المتحاربين حتى أدركه ، وحمل عن القوم ديات القتلى ، قيل ان امرأته بهيسة الطائية هي التي حملته على هذه المأثرة الجليلة . وشاركه فيها هرم بن سنان فخصها زهير بمعلقتة ، ثم بقصيدته اللامية التي يقول فيها :

تداركتما الاحلاف قد ثل عرشها ،
وذبيان قد زلت باقدامها النعل

ما عدا القصائد التي مدح بها هرم وحده ، والتي مدح بها أباه سنانا ورثاه .
وأما حصن بن حذيفة بن بدر فإنه من أشرف بيت في العرب . قال أبو
عبيدة : « بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو
بدر . وبيت ربيعة بنو شيبان ومركزه ذو الجدين . وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ،
ومركزه بنو زارة » ، وروي ان معاوية سأل السائب بن بشر الكبي فقال :
« اخبرني عن أعز العرب . قال : رجل رأيته بباب قبة ، فقسّم الفيء بين الخليفتين
أسد وغطفان معا . قال : ومن هو ؟ قال : حصن بن حذيفة بن بدر » .

فهؤلاء الأشراف هم الذين وقف زهير مدائحهم عليهم ، واتسع له مجال
القول في ذكر مناقبهم وتعداد مآثرهم ، فخلدها في شعره ، وجعله ديوانا لها ،
ولكنه كان أميل الى بني مرة لأنهم أخواله ، فسارت أشعاره في هرم وأبيه والحارث
بن عوف كل مسير ، حتى قيل أن هرما حلف أن لا يمدحه زهير الا أعطاه ، ولا
يسأله الا أعطاه ، ولا يسلم عليه الا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا . فاستحيا زهير
مما كان يقبل منه ، فكان اذا رآه في ملا قال : « أنعموا صباحا غير هرم ، وخيركم
استثيت » .

ومن حسنات زهير أنه كان لا يجنح في مدحه الى الغلو المقوت ، ولا يأتي
بسعاف القول ، ولذلك قال الأقدمون فيه : زهير لا يقول الا ما يعرف ، ولا يمدح
أحدا الا بما هو فيه . « وإذا وقع له شيء من الغلو جعل الشرط له مانعا مثل قوله في
هرم :

لو نال حي من الدنيا بمنزلة
وسط السماء ، لنالت كفه الأفقا

فلو : حرف امتناع لامتناع ، اي امتناع نيل الأفق من أجل امتناع الشرط
لنيل وسط السماء . قال ابن سلام : « من قدم زهيرا ، أحجّ بأنه كان أحسنهم
شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من اللفظ ،

وأشدهم مبالغة في شعره . فلو الشرطية هنا أبعدت زهيرا عن السخف والكذب ، وأبقتة في حدود صدقه ورضانته ، وجنبته فضول الكلام الذي يلازم شعراء المدح عادة . وهذا ما أراده الأحنف بن قيس اذ قال أنه ألقى عن المادحين فضول الكلام ، واستشهد بقوله :

فما يك من خير أتوه فإثما
توارثه آباء أبائهم قبل

وأما مبالغته التي ذكرها ابن سلام فانه تجعله يتتبع وصف عمدوحه بجميع الخلال الحميدة من كرم وشجاعة وحلم وطيب محتد ، وبلاغة في المنطق الى ما هنالك من الفضائل والصفات التي يفاخرون بها ، ويعدونها من شروط السيادة عندهم . ولا يغفل عن ذكر العاذلة التي تشغل مكانا في الشعر القديم ، تلامس عاطفة الجاهلي بنصحها وتأنيبها له . تلومه على أسرافه بالكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والأعراض ، فزهير يحدثنا بأسلوبه القصصي الموجز أن عوازل حصن بن حذيفة قاعدات لديه يغدينه طورا ، وطورا يلمنه ، حتى اذا أعياهن أقصرن عنه :

بكرت عليه غدوة ، فرأيته
تعودا لديه ، بالعريم ، عواذله
يغدينه طورا ، وطورا يلمنه
واعيا ، فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزاء
عزوم على الأمر الذي هو فاعله

فهو كريم سخي بماله ، ولكنه لا يبذله على الخمر شأن غيره من الذين يفاخرون بشرها ليذكروا سخاءهم وانما يهلكه في بذله للعفاة الذين يقصدونه ، يبذله متهلل الوجه مغتبطا :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ما له ،
ولكنه قد يهلك المال نائله

تراه ، اذا ما جتته ، متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ويمدح هرم بن سنان فيسترسل في تعداد مناقبه ، ويجعله خير قيس حسبا
وخلقا ونائلا ، يباري أباه وجده فيدركهما ، وإن تأخر عنهما فلأن فضلها سابق
لفضله ، فهو على إعجاب بهرم وحب له لا يخرج من رصانته ورويته الى الافراط في
تقدمته دون أن يراعي آباءه وهم سادات وفرسان :

بل اذكرن خير قيس كلها حسبا

وخيرها نائلا ، وخيرها خلقا

القائد الخيل منكوبا دوابرها

٢ قد أحكمت حكمت القيد والأبقا

غزت سمانا ، فأبت ضمراً خُدجا

٣ من بعدما جنبوها بُدناً عُقفا

يطلب شأو امرأين قَدَمَا حَسَنًا ،

نالوا الملوك ، وبذًا هذه السُوقا

هو الجواد ، فان يلحق بشأوهما ،

٤ على تكاليفه ، فمثله لِحفا

أو يَسْبِقَاهُ على ما كان من مَهَلٍ

٥ فمثل ما قَدَمَا من صالح سبعا

قد جعل المبتغون الخير في هريم

والسائلون الى أبوابه طُرُقا

ان تلقى يوما على علاقته ، هرما ،

٦ تلقى الساحة منه والندى خُلُقا

٢) أحكمت : جعل لها حكمت : الحكمة : تكون على الرأس . الدوابر : الحوافر . القيد : ما قطع من
الجلد . الأبق : او القتب .

٣) الخدج : التي تلقي أولادها لغير تمام . جنبوها : قادوها . عقق : جمع عقوق ، التي بان حملها

٤) على ما يتكلف من الشدة .

٥) المهل : التقدم .

٦) على علاقته : على قلة مال .

فكأنه في استرساله مع الوصف يقص خبرا عن مناقب السيد لاستيفائها وتبليغ نعوتها . وهو في غالب مدحه يميل الى القصص لعنايته باظهار الحقائق وحرصه على أن يبعدها عن خدع الخيال فيؤكددها بالأحاديث وسرد الأخبار . وهذه الخاصة لا يخلو عنها شاعر في الجاهلية والاسلام . فكلهم يعتمدون الأخبار في التحدث عن أعمال ممدوحهم ، ولكن زهيرا يتميز بتوفره على السرد القصصي ، ونزوعه الى تجسيم الحقائق وايضاح أغراضه . فيتبع معانيه مبالغا في اظهارها دون مغالاة وسخف ، وهذا ما جعل الأقدمين يقولون فيه : لا يقول الا ما يعرف ، وألقى عن المادحين فضول الكلام .

ويتبغى ألا تغفل عن قوله : على علاته هرما ، ففيه من تبليغ المدح شيء كثير ، لانه يريد به أية حال من أحواله ، على فقره وغناه ، وسعته وضيقه . ولعله كان يرتاح الى هذا التعبير فأورده غير مرة في شعره ، من ذلك قوله :

ان البخيل ملوم حيث كان ، ولكن الجواد على علاته ، هرم
وهي قصيدة لا تختلف عن أخواتها في الاشادة بكرم ممدوحه وشجاعته .
ووصف خيله التي يغير بها على الأعداء ، فتعود بالغنائم ، فيقسمها بين أصحابه
غير شحيح ولا مستأثر :

حتى تأوى الى لا فاحش برم

١ ولا شحيح اذا أصحابه غنموا

يَقْسِمُ ثم يُسَوِّي الْقَسَمَ بينهم

٢ معتدل الحكم لا هار ولا هشم

وفضله على غيره في ثلاث خصال ، وهي أنه يقود الخيل ، ويصهر الى الملوك ، ويصبر في المواطن التي يضجر فيها سواه ويستوقفنا ، على الأخص ، ما نسب اليه من التقوى ، حتى أن الله يعصمه من سيء العثرات :

(١) أي ترجع الغنائم . الفاحش : البخيل جدا . البرم : الذي لا يدخل السير ليخله .
(٢) الهاري : الضعيف . الهشم : السريع الانكسار .

ومن ضريبة التقوى ، ويعصمه

من سيء العثرات الله والرحم

وقلما وجدنا المدح الديني في الشعر الجاهلي ، لأن التقوى لم تكن من الفضائل التي يفاخرون ويمدحون بها ، فقد كان الدين ضعيفا في نفوسهم فما يذكرون الله الا في الحلف لتوكيد كلامهم ، ولا يلمحون شطر أصنامهم الا عرضا لبداوتهم وترحلهم وبعدهم عن بيوتهم . واذا سمعنا النابغة يمدح الغساسنة بدينهم ، ويصف موكبهم يوم الشعانين ، فلأنهم كانوا مسيحيين يباهون بديانتهم ويتمسكون بعقائدهم . فهل كان هرم بن سنان مسيحيا ليصفه زهير بالتقوى ، ويجعل له الكرامة عند الله ، أم هل كان زهير من اولئك العرب الذين تأثروا بالنصرانية التي تسربت في الصحراء ، وانتحلها جماعات من مختلف القبائل ، فجعل التدين والتقوى من الصفات التي يحمدها في ممدوحه ؟ وليست هذه الظاهرة وحيدة في شعره ، فان له أمثالا في معلقته وغير المعلقة ، تدل على ما للدين من خطر في نفسه . حتى مال بعضهم الى الشك في هذه الأبيات والى نسبتها اليه . مع ان هذا لا يدعو الى العجب بالاضافة الى تعاقل زهير وحكمته وحسن بصره بالامور . فغير بعيد ان يصل أشباهه الى معرفة الله ، والايمان بالآخرة والثواب والعقاب عن طريق المسيحية او اليهودية ، وهما غير مجهولتين في جزيرة العرب فلم يقتصر على ذكر الله في الحلف كغيره بل كان ينظر الى عنايته تعالى مثل قوله في هرم واخوته وأبيه :

قومٌ ، أبوهمُ سنان حين تنبهم ،

طابوا ، وطاب من الاولاد ما ولدوا

مُحْسَدُونَ على ما كان من نِعَم

لا يَنْزِعِ اللهُ منهم ما به حُسُودُوا

والشاعر الجاهلي يذهب في الحياة والموت وفهم الخلود مذهب غيره من ابناء عصره ، فما يدرك السعادة الا في الاشياء المادية ، بعيدا عن الأعراض الروحانية ،

(١) الضريبة : الخليقة .

كطرفه وحاتم الطائي وسواهما . فاذا فاته الخلود في هذه الحياة ، ولا سبيل اليه ، فمن الخير أن يترك ذكرا طيبا يخلد بعده ، فتحدث به الأجيال . على أن زهيراً يضيف الى الذكر الحسن زاد الآخرة فيختلف عن غيره من الشعراء الجاهليين في النظر الى الخلود :

تَقَى ، نَقَى ، لم يكثر غنيمة
بَنَهَكَ ذِي الْقَرْبَى ، ولا بَحَقْلُدِ
فلو كان حمدٌ يخلدُ الناسَ لم تَمُتْ
ولكنَّ حمدَ الناسِ لي بمُخِلِدِ
ولكن منه باقيات وراثَةٌ ،
فأورثَ بنيك بعضها ، وتزوّدِ
تزوّد الى يوم المات ، فانه ،
ولو كرهتَه النفس ، آخر موعد

ومما يجدر ذكره ان الشاعر لم يخص بهذه الكرامة الدينية أحدا من ممدوحيه غير هرم بن سنان ، وربما ذكر معه نسيبه الحارث بن عوف الذي شاركه في تحمل ديات القتلى ، فيقول :

رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم ،
فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فعلهما استحقا هذه الكرامة عنده لما فعلا من الخير والاحسان في أبعاد الحرب عن القبيلتين الغطفانيتين وفي سعيهما المحمود لتوطيد السلم وحقن الدماء ، ولم يكن هذا شأنه عندما ذكر حصين بن ضمضم المري في معلقته ، فقد أطرى شجاعته ومنعته واقدامه . ووصف أخلاقه بما توصف جفاة الاعراب من الغلاظة وحب الظلم ، حتى لنعجب له كيف يجعل الظلم من المزايا الممدوحة حين يقول :

(١) الحقلد : البخيل السيء .
يرى الاصمعي ان زهيراً أخذ فكرة البعث عن اليهود .
لانس = مهد الاسلام . ص ٨٧ .

جريء متى يظلم ، يعاقب بظلمه ،

سريعا ، والا يُبَدَّ بالظلم يظلم

ولكنه ، وهو الشاعر الحكيم ، يعرف اين يضع كلامه ، فما ينزله في غير منزله ، ولا يمدح الرجل إلا بالذي فيه ، فلذلك جاءت مدائحه ، على ما فيها من المبالغة في تقصي الصفات المحمودة ، بريئة من الكذب والغلو المذموم . وكثيرا ما يمدح الرجل بذكر أعماله ، فيسردها على طريقته القصصية ، ويجعلها شواهد ناطقة بحسن خلال ممدوحه . فإنه في مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف قص خبر سعيهما للصلح ، وكيف نجما الديات دون أن يشتركا في الحرب ، حتى بلغا مأربها وأصلحا بين المتحاربين ، فكان في تحدته عنها مادحا لهما بمساعيها دون جنوح الى الخيال المفرط ، فالحقائق الناصعة هي التي تتكلم وترفع شأن ممدوحيه :

سعى ساعيا غيظ بن قرة بعدما

تبذل ما بين العشرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من قريش وجرحهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما

١ على كل حال ، من سحيل ومبرم

تداركتما عيسا وذبيان بعدما

٢ تفانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما : أن ندرك السلم واسعا

بمال ومعروف من الامر ، فلم

فأصبحتما منها على خير موطن ،

بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عليا معدّ ، هديجا

ومن يستبح كنزا من المجد ، يعظم

١) سحيل : الخيط المفرد . المبرم : الذي يجمع بين مفتولين ، أي بين قوي وضعيف أو بين رخاء وشدة .

٢) منشم : عطارة بمكة ، اشترى منها قوم عطرا وتحالفوا على قتال عدوهم فقاتلوا حتى قتلوا آخرهم ، فتطير العرب بعطرها وضرب به المثل : أشأم من عطر منشم .

تعفَى الكلوم بالمتين ، فأصبحت
ينجمها من ليس فيها مجرم
ينجمها قوم لقوم غرامة
ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم
مغانم شتى من أفال مزغم ٣

وإذا أثنى على جودها قص خبر السنة الشهباء وما تنزل من قحط وفقر في
الناس ، وارك ذوي الحاجات حول بيوتها ، يعيشون من أموالها ، حتى يخصب
البلد :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،
ونال كرام المال في الجحرة الاكل
رأيت ذوي الحاجات ، حول بيوتهم
قطينا بها ، حتى اذا نبت البقل
هنالك أن يستخبلوا المال يخلوا ،
وان يسألوا يعطوا ، وأن ييسروا يغلوا ١

وهذا الاسلوب الخبري يجعلك لا تستنكر ما يقول الشاعر في ممدوحه ، ولا
تعزوه الى الغلو والافراط ، فمدائح زهير هي خير ما وصل الينا عن الجاهلية من
الاشادة بسادات القبيلة ، والعناية بشؤونها السياسية وأحوالها الداخلية
والخارجية .

سياسة القبيلة :

لم يقتصر شعر زهير على مدح السادات والفرسان ، وذكر سياستهم
الداخلية في ادارة شؤون القبيلة ، وفض مشاكلها في أنديتهم ، واطعام فقرائها في

(٣) الافال : أفيل ، الفضيل . المزغم : البعير الذي قطع شيء من أذنه وهو البعير الذي يترك معلقا ،
يفعل ذلك بكرام الابل تميزا لها من غيرها .

(١) يستخبلوا : يستعار منهم الابل لشرب البانها . يغلوا : يختاروا سنان الابل ليقامروا عليها .

السنة الشهباء ، وايقاد نارهم للضيوف الذين ينزلون عليها ، ونصرة بعضهم لبعض في المغارم والمغانم ، بل توفر أيضا على شؤونها الخارجية التي تتناول القبائل القريبة والبعيدة . وقد وقع في زمانه أعظم حادث مرّ ببني ذبيان ، وهو حرب داحس والغبراء . وشهد ما حلّ بهم من الكوارث الفظيعة . فما كاد يعقد الصلح ويتعدّد شبح الموت ، حتى عاد خطر الحرب يهدد القبيلتين الغطفانيتين ، بعد مقتل رجل عسبي ، فنشط الى تلافى الأمر قبل استفحاله ، فوجه معلقته الى تزوين السلم وتقبيح الحرب ، وقد علم أن من الخير لبني ذبيان الا تعود الى القتال بعدما خسرت نخبة فرسانها وساداتها ، وهاله ان تعاودها الولايات بعد انقشاع غنائمها المظلمة . فهب يدعو المتحاربين الى الوفاء بعهد الصلح ، مذكرا اياهم ما لقوا من المصائب في تقاتلهم . مخالفا رأي من يبغى الحرب امثال حصين بن ضمضم مع أنه من انسبائه ، وفارس مشهور في بني مرة . ولم يحجم عن القاء التبعة عليه وحده في مقتل العسبي ، متخذا اسلوبا جميلا ، خليطا من الوعظ والقصص ، منطقي الاتساق ، فبلغ غايته الانسانية في الدعوة الى السلم . والتحذير من الحرب وبرا بني ذبيان من تهمة الغدر والخيانة ، وباح باسم القاتل دون أن يخذله . فقد شرع في أول الأمر يذكر ذبيان والاحلاف اليمين التي أقسموها على ابرام الصلح ، وخوفهم غضب الله وعقابه اذا كانوا يضمرون الحنث فيها ، فيبدو مؤمنا بالآخرة والحساب :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة ،

وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في صدوركم

ليخفى ، ومهما يكتنم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخر

ليوم الحساب ، او يعمل فينقم

ولكنه لم يتسبط في تفصيل هذه الفكرة الغيبية ، بل انتقل الى عالم الطبيعة ، وهو يعلم أن الصور المحسوسة أبلغ تأثيرا في نفس البدوي المفرق في ماديته . فطفق يصف فظاعة الحرب ووضح مغباتها ، فوفق لبلوغ مأربه كل

التوفيق ، وأتى بصور بارزة تتوالى دراكما متفقة على تمثيل الحرب وأهوالها ونتائجها
وغلائها . فكان فيها عنيفا شديداً على رصانته وهدوئه . وما مثله الا مثل المرشد
الحكيم يترفق في نصحه عند صغار الأمور . ويعنف ويقسو عند كبارها :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ،

١ وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعوها ، تبعوها ذميمة ،

وتضر ، اذا ضربتموها ، فتضرم

فتعركم عرك الرحى بئفائها

وتلقح كشافا ، ثم تنتج ، فتتم

فتنتج لكم غلمانا أشأم كلهم

كأحمر عاد ، ثم ترضع ، فتعظم

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها

٢ قرى بالعراق من قفيز ودرهم

وكان يعلم أن بني عيس ساخطون على بني مرة ، لمقتل صاحبهم بعد عقد
الصلح يتهمونهم بالخيانة ، ويرصدون الشر للسيد المصلحين . فأظهر براءة
القبيلة من هذه الجناية ، وأخبر أن القاتل ابن ضمضم أقدم عليها ، ولم يخبر جمهرة
قومه ، فهو مسؤول عنها دون غيره . بيد أنه لم يشأ خذله وأطاع الأعداء فيه ،
وإنما أراد تبرئة قبيلته من ظنة الخنث والغدر لئلا يتسع الخرق ، فلا يصلح الأمر
بعده أبداً ، فما كان يتهمه حتى اندفع يذكر شجاعته وجراته وإقدامه ، وإن وراءه
ألف فارس يحاربون معه ويشدون أزره :

وقال : سأقضي حاجتي ، ثم أتقي

عدوي بألف من ورائي ملجم

١ المرجم : المظنون . الثفال : جلدة توضع تحت الرحى عند الطحن يقع عليها الطحين . كشافا :

سنتين متوسطتين .

٢ الفقيز : مكيال .

فشدّ ، ولم يفزع بيوتاً كثيرة ،
لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم
لدى أسد شاكي السلاح مقذّف ،
له لبد أظفاره لم تقلّم
جريء ، متى يظلم ، يعاقب بظلمه
سريعاً ، وإلاّ يبد بالظلم يظلم

ويتبع تبرئة بني مرة ، ولا سيما السيدين اللذين أصلحا بين المحتربين ،
فأورد أسماء فرسان من بني عيس قتلوا في معارك السباق ، وقال العبيس أن الذين
تحملوا الديات من أجل الصلح لم يشاركوا في دماء هؤلاء القتلى ، فكيف تتهمونهم
الآن . وتأخذونهم بجريرة غيرهم . ولم يغفل أن يفهم بني عيس أن سادات غيظ
بن مرة غزيرة الجانب ، لا يدر الموتور ثأره منهم ، وإذا جنى أحدهم جناية لا
يسلمونه ولا يخذلونه ، وكأنه يشير هنا إلى جناية حصين بن ضمضم :

كرام ، فلا ذو الضعن يدرك وتره
لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم

فبلغ بحسن منطقته ما أراد من التحذير والتنمية وتبرئة قومه والدفاع عنهم ،
فأدى مهمته القبلية خير تآدية ، وأنقذ السلم والشرف في وقت معاً .

وكان كلما عرضت له خدمة القبيلة لا ينكص عنها فإذا صعدت بنو تميم إلى
بني غطفان تطلب غزوها ، تصدى لها يتهددها ويثبط عزيمتها بسكون طبعه
ورباطة جأشه ، دون أن يفور له فائر . فيظهر منعة قومه ، وكرم خيولهم ، ثم
ينصح لها أن تبقى في ديارها لئلاّ تمنى بالذل ، أو أن تنتجع سنان بن أبي حارثة
المرّي ، والد هرم ، فتلقى عنده الخير والساحة :

فقريّ في بلادك ، ان قوما
متى يدعوا بلادهم ، يهونوا

(١) مقذّف : ملقن .

أو انتجعي سناناً حيث أمسى

فان الغيث منتجع معين

وكذلك كان شأنه مع بني هوازن وبني سليم عندما أزمعوا الغارة على الغطفانيين ، فذكرهم القرابة ، ودعاهم إلى رعايتها وإلى حفظ المودة . ولم ينس أن ينوه بشدة بأس قومه ، وانهم إذا آثروا الصلح فعدوهم أفقر إليه منهم :

خذوا حظكم من ودنا ، ان قربنا

إذا ضررستنا الحرب ، نار تسعّر

وأنا وإياكم إلى ما نسونكم

لمثلان ، أو أتمم إلى الصلح أفقر

ولم يكن هجاؤه لآل حصن إلا من جملة سياسته القبلية في الدفاع عن غطفان ومقاومة من يسيء إليهم أو إلى أحد منهم . فان الذي دفعه إلى هجائهم هو ان رجلاً من بني عبد الله بن غطفان ، وهم الذين جاورهم زهير ، أتى قوماً من آل حصن ، فأكرموه وأحسنوا جواره . وكان مولعاً بالقمار ، فنهوه عنه ، فأبى إلا المقامرة ، فقمر مرة فردوا عليه . ثم قمر أخرى فردوا عليه . ثم قمر ثالثة ، فلم يردوا عليه . فترحل عنهم إلى قومه ، وزعم أنهم أغاروا عليه ، فهجاهم زهير ثم لما علم الحقيقة ندم ، وكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم . فقد هجاهم زهير لاعتقاده أن الغطفاني مظلوم أغير عليه ، فانبرى يذود عنه مهدداً بني حصن ساخراً بهم ، ولكنه لم يفحش في أعراضهم كما أفحش في بني الصيداء بعدما سبوا عبده يساراً ، بل اقتصر على التهكم الأليم ، والوعد والوعيد دون أن يغلط باب الصلح ، فكان ناصحاً لهم ومرشداً . يجادلهم ليثبت عليهم خطأهم ، ويدعوهم إلى إصلاح ما أفسدوا لكي لا يتسع الخرق على الرقع فيأتيهم منه هجاء لا قبل لهم به . وفي هذه القصيدة السياسية تتجلى حكمة زهير ورويته واستطالته في الجدل واستنزال الخصم ، وإلقاء التبعة عليه لا يستطيع أن يتبرأ منها . فقد جاءهم بسبيل الجوار المقدس والذمة والوفاء ، فكان أشبه بمحام يدافع عن موكله ليثبت الجرم على خصمه ، ويحمّله على تأدية الدين إلى المدعي . فيرد على الحجج التي بوسعه أن يتذرع بها ،

ويدحضها بجدله وبراهينه ، ويبصره مقاطع الحق التي أعجب بها الأقدمون ،
فلقبوه من أجلها بقاضي الشعراء :

واما أن يقولوا : قد أينا
فشر مواطن الحسب الإياء
وان الحق مقطعه ثلاث : يمين أو نفار أو جلاء
جوار شاهد عدل عليكم ،
وسيان الكفالة والتلاء
بأي الجيرتين أجرتموه
فلم يصلح لكم إلا الأداء

حكيمته :

رأينا زهيراً في مدائحه وأهاجيه ، يمثل أفضل تمثيل سياسة القبيلة الجاهلية ،
يشيد بمناقب ساداتها ، ويوجع في تهديد أعدائها ، يخطب ويعظ ، ويمجى
ويدافع ، فعلينا أن ننظر الآن إليه حكماً مرشداً ، يريد الخير لقومه ، فيبذل من
الآراء والأمثال ما تستقيم به أحوالهم الخلقية والاجتماعية . وليس لدينا من شعره
قصيدة تجمع الحكم أبياتاً يتوالى بعضها أثر بعض غير معلقته ، فقد خص القسم
الأخير منها بطائفة من الآراء الاجتماعية التي شهرته عند الأقدمين ، وفضلوه من
أجلها فقالوا : أشعر الناس صاحب من ومن ومن ، وله أقوال متفرقة في مختلف
أشعاره ، منها أدلة عقلية مثل قوله :

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه

وتغرس إلا في منابتها النخل

ومنها أمثال في الحض على العمل الصالح :

تزود إلى يوم الممات ، فانه ،

ان كرهته النفس ، آخر موعد

(١) التلاء : الحوالة . هما سيان أو جيد له حقاً بهذين . وكلاهما جواز .
(٢) الأشيخ : الفنا الملتف في منبته . لا يولد الكريم إلا في موضع الكريم .

أو في تصوير أخلاق ممدوحه :

تراه ، إذا ما جئته ، مهتلاً ،
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أو في تحديد مقاطع الحق :

وان الحق مقطعه ثلاث : يمين أو نفار أو جلاء

أو في وصف خلود شعره ، وفناء العطايا التي يأخذها من الممدوح ، ولعله
ترداد لقول عمر بن الخطاب لبعض ولده : « وذهب ما أعطيتموه ، وبقي ما
أعطاكم . » أولعل ما نسب إلى عمر ترداد لهذا القول :

وانك ، ان أعطيتني ثمن الغنى ،

حمدت الذي أعطيك من ثمن الشكر

وإن يفن ما تعطيه في اليوم أو غد ،

فان الذي أعطيك يبقى على الدهر

واما آراؤه في المعلقة ، فإنه يتكلم أولاً على الحياة ، فإذا هو قد سئمه لطولها
بعدها عاش ثمانين حولاً يلقي تكاليفها وأثقالها ، وسئمه لأنه يجهل ما يستر عنه
الغد ، وهي أمنية الإنسان لو استطاعها ، وسئمه لأن الموت يخطط على العمياء ،
فيصيب هذا ويخطيء ذاك ، ثم يتناول سياسة الاجتماع ، فنرى كل بيت يشتمل
على فكرة مستقلة برأسها ، تتوخى إرشاد الفرد إلى الطريق الذي يحسن به سلوكه
لينتفع في دنياه ، وهي من الآراء التي يدركها الإنسان بتجارب الحياة واختبار
الناس ، والإطلاع على وجوه الخير والشر ، وهي إلى ذلك ، من الحقائق البديهية
والفكر المشترك ، يستطاع الاعراب عنها بمختلف التعبيرات شعراً ونثراً ، دون أن
تخسر شيئاً من قيمتها المعنوية ، ولكنها إذا انطلقت على لسان الشعراء ، كان
تأثيرها أبلغ في النفوس ، وتجعل لصاحبها منزلة بين الحكماء ، حتى لنسمع جرجي
زيدان يقول فيها : « هذا لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . »

وإذا قلنا تتوخى إرشاد الفرد فلأنها لا تبحث في خير المجموع جملة ، وما

يؤول إلى إصلاح نظمه ومداواة آفاته العامة ، وإنما هي فردية مثل البدوي ، ملائمة
لحياته الصحراوية ، ترشد الأفراد لينتفعوا بها في قبيلتهم ، على علاقاتها ، فتشمل
المنفعة المجموع الذي يتألف منهم ، وهذا ما أراده زهير عندما أخذ يرشد بقوله :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ،
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

ويدعوه إلى البذل والسخاء ليقى عرضه ويلقى الحمد :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ،
يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيخل بفضله
على قومه ، يستغن عنه ويذم
ومن يجعل المعروف في غير أهله ،
يكن حمده ذمًا عليه ويندم

وهذه الأقوال من الآراء الشائعة في الأدب القديم ، لتعودهم أن يقرأوا
الضيوف ، ويجيروا الخائفين ، ويكرموا العفاة ، فنطقوا بها معبرين عن أحوالهم ،
وان اختلفوا في صنع المعروف ، فزهير يرفضه في غير أهله ، ويجعل عاقبته ذمًا
وندامة . وغيره يقبله ويرى أنه لا يضيع ، كما قال الخطيبه :

من يفعل الخير ، لا يعدم جوازيه ،
لا يذهب العرف بين الله والناس

ولم يكن زهير رسول الضعف والهزيمة وثبيط العزائم في دعوته إلى السلم
وتحذيره من الحرب ، بل كان أدبه أدب القوة كغيره من الشعراء الجاهليين ، لا يبشر
بالاستكانة والخنوع ، بل يدفع الحرب ما دام بوسعه أن يدفعها خير القبيلة أفراداً
وجامعات دون أن يقودها إلى الذل والصغار . فإما إذا كان لا بد من الحرب ، فليس
على المرء أن ينكس عنها :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه ،

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

ولا نعجب أن تصدر عنه حكمة في تزيين الظلم ، فإنما هي حياتهم القبلية تفرض عليهم ظلم البعداء ، والحلم على الأقرباء ، فكلهم يفاخرون بالجور على الغريب والرفق بابن العم ، حتى أعظمهم فضلاً كحاتم الطائي ، أو لم يقل زهير في مدح حصين بن ضمضم :

جريء متى يظلم ، يعاقب بظلمه

سريعاً ، وإلا يبد بالظلم يظلم

وكذلك قال الفرزدق الإسلامي مفاخرأ :

ابت أن أسوم الناس إلا ظلامه ،

وكنت ابن مرغام العدو ظلوم

فزهير لم يزين الظلم إلا لأنه معروف إلى الغرباء لا إلى القبيلة فأوصى به في جملة آرائه ، وجعله من سياسته الاجتماعية متأثراً بروح عصره . فليست آراؤه كلها إنسانية تجاري العصور وتتخطى حواجز المكان والزمان ، بل فيها ما لا يعيش إلا في الصحراء ، في المجتمع القبلي والعصر الجاهلي .

ويستوقفنا قوله :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ،

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فالعرب يعتقدون أن القلب مقر العقل ، أو هو العقل كما في كتب اللغة . وكان أرسطو يجعل القلب موضع القوى النفسية بخلاف جالينوس الطبيب الذي يجعلها في الرأس ، وكان ابن سينا يأخذ برأي أستاذه أرسطو . وقد قال العرب من عهد بعيد : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، ولم يذكروا العقل في كلامهم ، وإنما ذكروا مكانه القلب والفؤاد . فزهير لم يبتعد من حكمة الشعب في هذا البيت كما أنه لم يبعد عنها حين يقول :

وان سفاه الشيخ لا حلم بعده ،

وان الفتى بعد السفاهة ، يحلم

فأراؤه المتفرقة لا تجاوز نطاق التفكير العام ، ولكنها تجعل من صاحبها شاعراً حكيماً ، وخطيباً مرشداً ، فهو من أولئك الشعراء الجاهليين الذين لهم رسالة اجتماعية يؤديونها لخير قبائلهم وإصلاح فسادها . فقد قام بها أفضل قيام في مدح سادات القبيلة وفرسانها ، وإطراء مناقبهم ، وفي الدفاع عنها ، وإرشادها إلى ما فيه نجاحها ، فكان الشاعر القبلي ، والشاعر الحكيم ، وقاضي الشعراء .

مراجع زهير :

الأغاني :	أبو الفرج
شعراء النصرانية :	شيخو
طبقات الشعراء :	ابن سلام
الشعر والشعراء :	ابن قتيبة
جمهرة أشعار العرب :	أبو زيد القرشي
بلوغ الأرب :	الألوسي
خزانة الأدب :	البغدادي
المعلقات السبع :	الزوزني
شرح المعلقات العشر :	التبريزي
أدباء العرب الأول :	بطرس البستاني
العقد الفريد :	ابن عبد ربه
تاريخ آداب اللغة العربية ١ :	جرجي زيدان

مراجع النابغة :

طبقات الشعراء :	ابن سلام
الشعر والشعراء :	ابن قتيبة
الأغاني ٩ :	أبو الفرج الأصفهاني
شواهد التلخيص ج ١ :	العباسي
جمهرة أشعار العرب :	أبو زيد القرشي
خزانة الأدب ج ١ :	البغدادي
أمراء غسان الترجمة العربية زريق وجوزي :	غولدكه
تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ :	جرجي زيدان
شعراء النصرانية ج ١ . شعراء الجاهلية - بيروت :	الأب لويس شيخو

- التبريزي
شكري الألوسي
فؤاد افرام البستاني
عمر الدسوقي
سليم الحندي
- : شرح المعلقات العشر
: بلوغ الأرب ج ٣ - في معرفة أحوال العرب
: الروائع ٣٠
: النابغة الذبياني . دار الفكر العربي ، القاهرة
؛ النابغة الذبياني . دمشق - منشورات أصدقاء الكتب .

النابغة الذبياني

حياته ونسبه :

كان النابغة من الطبقة الشريفة في قومه كما نجبرنا صاحب الأغاني ، واسمه زياد بن معاوية بن ضباب . وفي شرح التبريزي للقوائد العشر : زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب . يرتفع بنسبه الى يربوع بن غيظ بن مرة ، ثم الى ذبيان ، ثم الى غطفان . وليس من يدفع هذا النسب من الرواة والمؤرخين القدماء سوى ما ورد في الخبر عن أبي ضمرة يزيد بن سنان الحارثي أخي هرم بن سنان عمدوح زهير من رده النابغة الى بني قضاة الهامية لما لاحاه ، وانكاره نسبه في بني ذبيان القيسية . وكان يزيد متزوجا بنت النابغة . فطلقها . وسئل : لم طلقتها . فقال : أنا رجل من عذرة ، فانتسب الى اليمن ، وانتفى من غطفان . ثم أخذ يجمع اقرباءه من بني خصيلة بن مرة وبني نشبة بن غيظ بن مرة ، فتحالفوا على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فسموا المحاش ، لتحالفهم على النار وكانوا يحسدون النابغة لعفته وشرفه مع رجوعهم اليه في حوائجهم عند الملوك . وغير مستغرب حسد الأقرباء بعضهم لبعض . فاتفقوا على طرده من غطفان ، ونسبوه الى بني ضنة ، وهي عشيرة من عذرة ، ثم قضاة . وقال يزيد يعرض به ويعيره :

اني امرؤ من صلب قيس ماجد ،

لا مدّع حسابا ، ولا مستنكر .

فرد عليه النابغة بقوله :

جمع محاشك ، يا زيد فانني

أعددت يربوعا لكم وتميا ١

(١) تميم بن ضبة بن عذرة بن سعد بن ذبيان . المحاش : القوم من قبائل شتى يتحالفون على النار .

ولحقت بالنسب الذي غيرتني ،
وتركت أصلك يا يزيد ذميا
غيرتني نسب الكرام ، وإنما
فخر المفاخر أن يعد كريما
حذبت علي بطون ضنة كلها
إن ظلما فيهم وان مظلوما

فاعترف بأنه من ضنة ، وأنكر على يزيد أن يترك أصله ، مشيرا الى قوله حين
طلق ابنته ، انه من عذرة . ولكن ابن سلام يرى ان انتسابه الى ضنة كانتساب
كعب بن زهير الى المزنيين حين دفعه مزرد بن ضرار عن غطفان ورده على مزينة ،
لان العرب كانت تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها الا قال :
انا من الذين عنيت .

وأخبار النابغة وأشعاره تدل على عنايته بشؤون بني ذبيان ودفاعه عنهم
وانتمائه اليهم . وله قصيدة يعاقبهم بها على استنثارهم وتحالفهم عليه وعلى قومه
حتى نفوهم من القبيلة ، ويضرب لهم مثل الحبة وحليفها فيقول :

إلا أبلغنا ذبيان عني رسالة ،

فقد أصبحت عن منهج الحق جائره

أجدكم ، لن تزجروا عن ظلامه

سنيها ، ولن ترعوا الذي الاد آصره

ولو شهدت لهم وأفناء مالك ،

١ فتعذرني من مرة التناصرة

لجاؤوا بجمع لم ير الناس مثله

٢ تضاءل منه بالعشي قصائره

ليهنا لكم إن قد نفيتم بيوتنا

٣ مندى عبيدان المحلىء باقره

واني لألقى من ذوي الضعين منهم

وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة

- كما لقيت ذات الصفا من حليفها ،
وما انفكت الأمثال في الناس سائرة
فقلت له : ادعوك للعقل وافيا ،
ولا تشفيني بالظلم منك بادرة
فوائقها بالله حين تراضيا ،
٤ فكانت تريه المال غبًا وظاهره
فلما توفي العقل الا أقله ،
وصارت به نفس عن الحق جائرة
تذكر أن يجبل الله جنّة ،
٥ فيصبح ذا مال ، ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ،
٦ وأثل موجودا ، وسدّ مفقره
أكب على فأس يحدّ غرابها ،
٧ مذكرة من المعاول باتره
فقام لها من فوق جحر مشيد ،
٨ ليقتلها ، أو تخطيء الكف بادره
فلما وقاهما الله ضربة فأسه
ولله عين لا تغمض ناظره
فقال : تعالي نجعل الله بيننا ،
على مالنا ، أو تنجري لي آخره
فقلت : يمين الله ، أفعل انني
رأيتك مشؤوما ، يمينك قاصرة
أبي لي قبر لا يزال مقابلي ،
٩ وضربة فأس فوق رأسي فاقرة

(١) تعذرني : مثل عذر . تأتيني بعذر . (٢) قصائره : أرض أو جبل . (٣) المندي : كالنندية : ان تصدر الابل عن الماء ، ثم ترعى الكلاء ، ثم تعاد الى الماء . عبيدان : عبد لرجل من عاد ، كان يورد ابله اول الناس . فغلب عليه رجل من عاد ، فصار عبيدان يورد ابله آخر الناس . المحلى : المانع عن الماء . الباقر : جماعة البقر . (٤) غبا : يوم بعد ليلة (٥) يجمل الحلف بالله وقاية له =

فهذا العقاب ينم على تألم الشاعر من اقربائه لجورهم عليه وعلى عشيرته .
 وليس هذا شأن شاعر ينتسب الى بني عذرة ، ولو كان منها لما ضامه أن يعزى
 اليها ، وهي قبيلة معروفة في قضاة ، وقضاة من كرام القبائل العربية الجامعة .
 فنحن نرى رأي ابن سلام في رده على يزيد بن سنان وادعائه من ضنة ، مع ما نرى
 فيه من عطف عليها وعلى عذرة جمعاء . فقد كانت صلته بها حسنة كما يستدل من
 شعره وأخباره ، ولعلها نشأت بعامل اعتزائه اليها ومدحه لها . فنجده عند النعمان
 بن الحارث الغساني ينهاه عن غزو بني حسن بن حزام . وهم من بني عذرة ،
 ويخبره إنهم في حرّة وبلاد شديدة يصعب البولغ اليها . وكانوا يقطنون في وادي
 القرى شمالي يثرب ، وهو واد كثير النخل والزروع . فأبى النعمان أن يقبل
 نصيحته ، فبعث النابغة إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويحضهم على نصرة بني
 حُسن . ففعلوا ما أشار به عليهم ، وهزمت بنو عذرة الغسانيين فقال النابغة في
 ذلك :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته
 يريد بني حُسن ببرقه صادر
 تجنّب بني حسن فان لقاءهم
 كرية ، وان لم تلق الا بعابر

فإذا كان قد أخلص النصح للنعمان في تحذيره من الغارة عليهم ، فإنه كان
 أشد إخلاصا لهم في حمله قومه على امدادهم ومساعدتهم حتى كسروا الغساسنة .
 فحد به على بني عذرة ظاهر ، فلا غرو أن تحذب عليه بطون ضنة كلها كما
 يقول .

ويخبرنا صاحب الأغاني في كلامه على ابن مباداة الشاعر أن شيخا عالما من
 غطفان قال : « كان الرماح (أي ابن مباداة) أشعر غطفان في الجاهلية والاسلام ،

= وسترة . الواتر : الذي عنده الوتر ، طلب الدم والثار . ٦ ثمر : كثر . وأثل موجودا : أي كثر
 ابله . المفاقر : جمع لا واحد له بمعنى الفقر . ٧ غرابها : طرفها . المذكرة : الضوية شديدة
 الحد . ٨ بادرة : ضربة تبرد منه . ٩ فاقرة : مؤثرة مؤلمة . لا ساهرة : امرأة ساهرة من
 الحزن .

(١) من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان .

وكان خيرا لقومه من النابغة . لم يمدح غير قريش وقيس ، وكان النابغة يهذي باليمن مضللا حتى مات » . ولا يعني هذا كما فهمه المستشرق ديرنبورغ ان الشاعر خرف في أواخر حياته وهام في أرض اليمن ، وإنما يعني أنه كان يلهج بذكر القحطانية في انتسابه الى عذرة . ففضل الشيخ الغطفاني ابن مباداة عليه ، لان هذا لم يمدح غير قريش وقيس عيلان وكلتاها من مضر ، فكان خيرا لقومه من النابغة كما يزعم . فقد عطف النابغة على بني حسن ودعا قومه الى نصرتهم ، واتمى الى ضنة وفاخر بها ، غير انه لم يكن يوما لها بمقدار ما كان لبني ذبيان ، وان هذى بها نكاية في يزيد ومحاشه . وما خطر على بال احد من الرواة أن يدفعه عن غطفان ، ولا هو تقاعس مرة عن تأييدها بشعره وجاهه . فلسنا نرى مسوغا للغطفاني في ايثار ابن مباداة عليه سوى عصبية العدنانية ، مع أن الشاعر الاسلامي دون الشاعر الجاهلي منزلة وفضلا وزيادا عن قومه . فالنابغة نشأ في غطفان ولزمهم يدافع عنهم بشعره ثم اتصل بملوك الشام والعراق ونادهم في قصورهم ، دون أن يغفل عن مهمته القبلية عندهم ، ثم عاد الى قومه ومات بينهم ولم يخرف ولا هام في أرض اليمن كما وهم ديرنبورغ .

وكان يكنى أبا أمامة ، كما ذكر ابن سلام وصاحب الاغاني . ويجعل ابن قتيبة كنيته أبا أمامة وأبا تمامة ، ولعلها ثمامة كما ضبطها التبريزي في شرح القصائد العشر فقال : « ويكنى أبا ثمامة و ابا امامة بابنتيه » . وله ابنة ثالثة تسمى عقرب وربما كني بها أيضا . قال البغدادي في خزائن الأدب : « وكنيته أبو امامة وأبو عقرب بابنتين كانتا له » . واذا عدنا الى أخباره وأشعاره نرى أن عقرب ورد ذكرها في غارة النعمان بن الجلاح قائد الغساسنة على بني ذبيان فقد سبها في جملة من سبى من نسائهم ولما عرف انها بنت النابغة ، جهزها وأطلق سراحها ، ثم أطلق السبي والأسرى جميعا إكراما لأبيها . وليس لدينا خبر عن امامة ولا عن ثمامة ، وإنما نستدل من قصيدته التي مدح بها عمرو بن الحارث الغساني انه إنما اراد ابنته امامة بقوله في مطلعها :

كليني لهم ، يا اميمة ، ناصب ليل افاسيه بطيء الكواكب

وتروى له قصيدة اولها

ودع امامة والتوديع تعذير ،

وما وداعك من فضت به العير ١

وهي غير ثابتة له لأنها تروى أيضا لاوس بن حجر ، ثم لا ندرى هل أراد بامامة ابنته أو أراد امرأة سواها ، لأن البيت الذي بعده يحمل محمل الغزل ، بخلاف مطلع الغسانية فانه يشكو الى ابنته همومه وليله وما يقاسي من السهر . ومهما يكن من أمر فليس لدينا شيء يذكر عن بناته سوى ما أوردناه ، وهو وشل قليل لا يروي غليلا ، ولكنه لسان كنيته أبا امامة أو أبا عقرب . وترك الثالثة أبا ثمامة على ذمة ابن قتيبة والتبريزي . بيد أن الأولى أشهر الكنى الثلاث لأجماع الرواة والمؤرخين عليها .

واختلف في السبب الذي من أجله لقب بالنابعة ، فقال صاحب الاغاني « ذكر الرواية أنه إنما لقب بقوله : فقد نبغت لنا منهم شؤون » . وصدر البيت : وحلت في بني القين بن جسر . وهو من قصيدة له يمدح بها النعمان أبا قابوس . ويسميه ابن محرق كما يسمى غير واحد من الملوك للخميين ومنها البيتان المشهوران اللذان روي أن عمرو بن الخطاب فضله بهما على الشعراء حيث يقول :

أتيتك عاريا خلقتا ثيابي ،

على خوف ، تظن بي الظنون

فالفيت الأمانة لم تخنها

كذلك كان نوح لا يخون

ويبدو لنا أنه قالها بعد رجوعه واعتذاره اليه . وأما أن يكون لقب النابعة بيت من الشعر ، فإن الألقاب التي تطلق على أصحابها مأخوذة من أقوالهم ليست غريبة عن مألوف العادات العربية إلى يومنا هذا ، وهي كثيرة عند الأقدمين حتى ليصعب الشك فيها ، ونقتصر على ذكر ثلاثة شعراء عرفت القابهم في اشعارهم أحدهم جرير بن عبد المسيح قيل أنه لقب المتلمس لقوله :

(١) التعذير : المبالغة في العذر ، والتقصير بعد الجهد . فضت : فرقت .

فهذا أوان العرض طق ذبابه ،

زنابيره ، والأزرق المتلمس

والآخر محصن بن تعلبة العبدى لقب المثقب لقوله :

ظهرن بكلة وسد لن أخرى

١ وثقبن الوصاوص للعيون

والثالث شأس بن نهار العبدى سمي الممزق بقوله :

فإن كنت مأكولا ، فكن أنت آكلي ،

والا فادركنسي ، ولما أمزق

على أن الرواة لم يتفقوا على هذا السبب وحده في لقب النابغة بل أوردوا غيره ، وهو أكثر ملاءمة للشاعر النابغ . ومنه قول ابن قتيبة : « ونبغ بالشعر بعدما احتنتك وهلك أن يهتر » . وحكى ابن ولاد أنه يقال : « نبغ الماء ونبغ بالشعر ، فكأنه أراد أن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ » . وهذا التفسير لغوي خالص بخلاف ما تقدمه ، فقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري أنه يقال : « نبغ فلان في شعر شاعر ، وهو نابغة من النوابع . ونبغ في العلم وفي كل صناعة » . فغير كثير على شاعر الملوك أن يلقب النابغة ولدينا من جياذ قصائده ما يؤيد نبوغه في الشعر ، وهو الى ذلك حكم سوق عكاظ . وكانت تضرب له في الموسم قبة حمراء من ادم ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه اشعارها فيحكم بينها ، ويفضل الواحد على الآخر . وهذا الشرف لم يصبه شاعر قبله ولا بعده ، والقبة الحمراء لا تضرب الا للسادات والامراء . ولكنه لم ينفرد بهذا اللقب ، فقد ذكر الأمري في المؤتلف والمختلف ثمانية أشخاص يقال لهم النابغة ، منهم النابغة الجعدي ، وهو شاعر أقدم من صاحبنا النابغة كما يقول ابن سلام وابن قتيبة ، ولا ندرى سببا لتلقبيه غير نبوغه في الشعر ، وهو غير كاف ، لأنه يجوز أن يلقب به كل شاعر مجيد كأمريء القيس وزهير والأعشى وطرفة وسواهم ، وهؤلاء لم يلقبوا بالنابغة ، فلا بد أن

(١) الوصاوص : براقع صفراء تلبسها الجوارى .

يكون هناك أسباب خفيت على الرواة الأقدمين حتى أطلق هذا اللقب على ثمانية أشخاص ولم يشرحوا غير اللقب الذي عرف به نابغة بني ذبيان ، فذكروا أنه لقب بيت من الشعر قاله . وهذا محتمل الوقوع كما بينا . وكذلك قول بعضهم أنه سمي النابغة لانه لم يقل الشعر حتى صار رجلا ، ويؤيده قول ابن قتيبة انه نبغ بالشعر بعدما احتتك وهلك قبل أن يهتر . ومهما يكن من أمر هذا اللقب ، فان المعنى اللغوي هو الذي يتبادر الى الذهن قبل غيره ، وان كنا لا نستطيع أن نفسر سبب اختصاصه به دون غيره من الشعراء النوابغ الذين تقدموه او عاصروه وفيهم أمثال الأعشى والملك الضليل ، ولا سبب اطلاقه على من هم دونه ودون انداده شاعرية كالنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان .

ويستوفنا قول ابن قتيبة أنه نبغ بالشعر بعدما احتتك ، وهلك قبل أن يهتر . ومعنى ذلك انه لم يعرف بالشعر الا بعدما صار رجلا مجربا ومات قبل أن يخرف ويذهب عقله من الكبر . وإذا عدنا الى آثاره التي بلغت الينا لم نجد له شعرا في مدح ملوك غسان أبعد عهدا من زمن الحارث الأصغر ابي عمرو بن الحارث الذي مدحه بقوله :

علي لعمرو نعمة بعد نعمة
لوالده ، ليست بذات عقارب

والحارث ملك بعد أخيه المنذر الذي اعتقله القيصر طياريوس في أواخر سنة ٥٨١ م وجيء به الى القسطنطينية ، ثم أبعده الى صقلية . وكذلك لا نجد له مدحا في المناذرة الا ما مدح به النعمان أبا قابوس الذي تباوأ عرش الحيرة سنة ٥٨٠ . واما القصيدة التي رواها الأعلم الشنشمرى في مدح عمرو بن هند من غير مرويات الأصمعي ، فإنها كما يظهر قيلت في بعض ملوك الغساسنة ، لا في ملك العراق لقوله فيها :

فدوخت العراق ، فكل قصر

يُجَلَّلُ خندق منه وحام

فملك العراق لا يدوخ العراق ، وإنما يدوخه غاز غريب . وقد أصاب أبو

عبدة في قوله : و « إنه قال هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني في غزوه العراق » . ولا يرفع ذلك قوله فيها :

ولكن ما اتاك عن ابن هند
من الحزم المبين والتمام

فإن في ملوك الشام من ينتسب الى هند ، كما ذكر النابغة في نسب الغلام الغساني ، ولعل المراد به عمرو بن الحارث :

للحارث الأكبر ، والحارث الأصغر ،

والأعرج ، خير الأنام

ثم لهند ولهند وقد

ينجع في الروضات ماء الغمام

فقد نسبه الى أبوين ، الحارث الأكبر والأصغر . ثم الى أمين ، هند وهند . وروى له شعر يحذر فيه قومه من غزوة ابن هند ، أي الملك الغساني ، بدليل أنه يذكرهم قوة الغساسنة وانتصارهم على المناذرة يوم حليلة ويوم عين أباغ :

يوما حليلة كانا من قديمهم ،

وعين باغ ، فكان الأمر ما اعترأ

يا قوم ، أن ابن هند غير تارككم

فلا تكونوا ، لأدنى في وقعة جزرا

ونحن نعلم أن عمرو بن الحارث الغساني وأخاه النعمان أوقعا بيني ذيبان غير مرة ليلهم الى المناذرة ، واعتدائهم على مراعي الغساسنة . والاميران ينتسبان الى أمهما هند ، فيصح أن يكون هذا الشعر في أحدهما . ولعل الذي حمل بعض الرواة على أن يجعلوا القصيدة الميمية في ملك العراق هو انها قيلت في عمرو بن الحارث الغساني ، ونسبه الشاعر الى أمه هند ، وهذه النسبة مشهور بها سميها ملك العراق فاختلط عليهم الأمر ، ولكن أبا عبدة تنبه لها ، وأدرك عليهم وهمهم ، وجاراه المستشرق نولدكه . ويؤيد ذلك قول ابن سلام : « النابغة ليس له قوم ،

كان في عهد النعمان » . ونفى ابن قتيبة خرفه بقوله : مات قبل أن يهتر . ولعل سكوته عن مدح ملوك العراق والشام قبل النعمان أبي قابوس ، والحارث الأصغر يفسر قول ابن قتيبة أنه نبغ بالشعر بعدما احتتك .

وعاش النابغة الى ما بعد مقتل النعمان بن المنذر عند كسرى (٦٠٢م) وله شعر فيه لما بلغه موته . وشهد اوآخر حرب داحس والغبراء بل شهد الصلح أيضا . وله شعر في رحيل بني عيس عن ديارهم بعد يوم جفر الهبأة ومقتل حذيفة بن بدر وأخيه حمل فقد ندم العبيسون على ما فعلوا بانسبائهم ، وكرهوا المقام في أرضهم ، فرحلوا متنقلين في البلاد ، حتى أتاهم وفود بني عامر فدعوههم أن يرجعوا ويخالفوهم ، فأقاموا فيهم ، فذكر ذلك النابغة في شعره . وكانت الحرب ، بعد هذه الواقعة ، قد صارت الى أشد أيامها ، وهي كما نعلم وضعت أوزارها في اوائل القرن السابع ، فيكون النابغة قد هلك بعد مقتل النعمان بزمان قريب .

آثاره :

ديوان شعر شرحه أبو بكر البطليوسي . وأشهر ما فيه أقواله في سياسة القبيلة ومدح الغساسنة ، واعتذاره الى النعمان ودالية يصف بها المتجردة . وعده المفضل الضبي وأبو عبيدة ، وأبو زيد القرشي من أصحاب المعلقات . ومطلع معلقته :

عوجوا ، فحيوا لنعم دمنة الدار

ماذا تحييون من نؤي وأحجار

نشك فيه كل الشك ، لأن آيات النحل والتعمل بادية عليه واليك شيئا

منه .

ألا أنعم صباحا أيها الملك المبارك . السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ،
والودي فداؤك ، والعرب وقاؤك . والعجم حماؤك ، والحكماء جلساؤك ، والمدارة
سماؤك ، والمقاول اخوانك ، والعقل شعارك ، والسلم منارك ، والحلم دثارك .

سياسة القبيلة :

عرفنا أن النابغة كان محسدا في قومه ، وان جماعة من اقربائه بني مرة تحالفوا

عليه وعلى عشيرته ونفهوم من غطفان ، فوَقعت بينه وبين يزيد بن سنان المري ملاحيات يتمثل فيها ما يحدث من العداوة بين الأقرباء . فتنشق القبيلة وتسؤ علاقة بعضها ببعض ، فلا يلم شعبها الا نكبة شاملة تنزل بها كحرب داحس والغبراء . ونتبين من هذه الملاحيات الم الشاعر وسخطه على قومه الذين لم يرعوا وده ولا ردوا سفهاءهم عنه ، مع احتياجهم اليه عند الملوك ، حتى اضطروه أن ينتسب الى الغبراء .

وما كان لبني ذبيان أن تنسى فضل النابغة فتسكت عن سفه يزيد ومحاشه ، وشاعرها لم يهمل يوماً أمورها . ولا قصر في نصحتها والذود عن حياضها ، وان ضمته قصور الحيرة والشام . وانه وإن لم يبلغ إلينا من شعره مدح لساداتها وثناء للذين قتلوا في حرب السباق ، لقد وصلت إلينا عدة قصائد تطلعننا على عنايته بشؤونها السياسية العامة . وأغلب الظن أنه لم يمدح ولم يرث أحداً منها لسبيين : أحدهما أنه كان من أشرفها فما أباح لنفسه أن يطري أنداده وهو منافس لهم ، لا يمدح غير الملوك كما يخبرنا في شعره حين مدح قائد الغساسنة النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي ، بعدما أطلق سبيل ابنته عقرب وسي بني ذبيان ، وأسراهم أكراما له ، وكان قد أغار على بني ذبيان فسبى واسر ، فلما قالت له عقرب أنها بنت النابغة قال لها : والله ما من أحد أكرم علينا من أبيك . ولا انفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلها . ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا . فأطلق له سبي غطفان وأسراهم فمدحه النابغة بقصيدة يقول فيها :

وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقة ،

فلست على خبر اتاك بحاسد

والسبب الآخر أنه تلكأ عن رثاء المقتولين ، وفيهم أمثال ضمضم المري وحذيفة بن بدر الفزاري لخلافه مع بني مرة من أجل يزيد وحلفائه ، ثم مع بني فزارة بعدما جرى بينه وبين بدر بن حذار الفزاري ، وبينه وبين حصن بن حذيفة وعيينة بن حصن من هجاء ومجافاة . ولكن نفوره من مدح الأفراد أو رثائهم ، لم يصرفه عن القيام بمهمة القبيلة العامة كلما دعت الحاجة إليها . فنراه يهجو عامر بن الطفيل العامري فارس قومه وشاعرهم لما بين ذبيان وعامر من عداة وغزوات .

وكان النابغة غائبا في بني غسان حين حدث يوم الرقم ، وانتصرت فيه غطفان على العامريين . فلما رجع الى قومه بلغه انهم يهجون عامرا وعامر يهجوهم ، فلامهم على أفحاشهم في شريف مثله . ثم هجاه هجاء مرا لم يفحش فيه ، الا أن عامرا تصور منه لما فيه من تهكم لاذع ، واقداع في تفضيل ابيه وعمه عليه ، فأصابه في منزلته الاجتماعية ، ونفى عنه السيادة ، وكان يطمع فيها بعد عمه أبي براء . وهذه الحادثة وقعت بعد حرب داحس والغبراء ، وكان قد عقد الصلح ، لان يوم الرقم عقبه يوم التتاء ، وكانت عبس وذبيان يقاتلون فيه جنبا الى جنب ، فكسر العامريون مرة ثانية . قال النابغة يهجو عامرا :

فان يك عامر قد قال جهلا

فان مِظَنَّهُ الجهل الشباب

فكن كأبيك أو كأبي براء

توافقك الحلومة والصواب

ولا تذهب بحلمك طاميات

من الخيلاء ليس لهن باب

فانك سوف تحلم او تناهى ،

١ اذ ما شبت أو شاب الغراب

فان تكن الفوارس يوم حسي ،

٢ أصابوا من لقائك ما أصابوا

فما كان من نسب بعيد ،

ولكن ادركوك وهم غضاب

ودافع النابغة عن غطفان جمعاء ، فلم يغفل عن بني عبس ، وهم انساب بني ذبيان ، وان فرقت الحرب بينهم . فقد هجا يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي العامري باسلوبه الساخر الموجه ، مناصرا للربيع بن زياد العبسي . وكان يزيد قد اصاب من النوق العصافير عند الربيع ، وهي من عطايا ملك العراق . فهده الشاعر بالنعمان ، واتهمه بخيانتته بعدما كان أمينه : قال من قصيدة :

(١) تناهى : تكف عن الجهل . (٢) حسي : يوم لبني ذبيان على بني عامر ، قتل فيه حنظله اخو عامر بن الطفيل .

فان يقدر عليك ابو قبيس

٣ تَطُّبُكَ المَعِيشَةَ فِي هَوَانٍ

وتخضّب محبة غدرت وخانت

١ بأحر من نجيع الجوف آني

وكنت أمينه لو لم تخنه ،

٢ ولكن لا أمانة لليمان

ولما تركت بنو عبس ديارها بعد يوم جفر الهبأة ، وذهبت متنقلة في البلاد ، فذعتها بنو عامر إلى أرضها مكابدة للذبيانيين ، وتألّم الشاعر من رحيلها إلى موطن الأعداء ، فمدح شجاعتها وأسف لانقطاع إخائها عن بني ذبيان ، فكأنه بشعره يمهّد للصالح بين القبيلتين المتحاربتين مخافة أن يستفيد العامريون من الحلف الجديد ، فلا تصلح بعده غطفان . فقد كانت بنو عامر تبعث القلب في نفسه لشدة عداوتها ، ولما بينها وبين الغطفانيين من حروب متوالية ، فعطف على بني عبس وضم بها على الغرباء : ومن تتبع شعره يللمس عنايته بمقاومة بني عامر وإفساد سياستها التي ترمي إلى إضعاف بني ذبيان وإبعاد حلفائها عنها ، وتمزيق الغطفانيين جملة ، فتقوى عليهم وتدرّك ثاراتها منهم . فسعت إلى ضم بني عبس وهي قبيلة غطفانية معروفة بالشجاعة والإقدام ، وفيها مشاهير الأبطال أمثال عنتره والربيع بن زياد وعروة بن الورد وسواهم ، كما سعت قبلاً لدى حصن بن حذيفة وعيينة ابنه بترك حلف بني أسد ، فرضي عيينة وهم بقطعه ، فتعرض له النابغة مدافعاً عن بني أسد ، داعياً قومه إلى التمسك بمؤاخاتهم وفي ذلك يقول لعيينة :

غشيت منازلًا بُعريتات

وأعلى الجزع للحبيّ المبن

تعاورهن حرف الدهر حتى

١ عفون ، وكل منهم مرّ

(٣) مطّ : مدّ .

(١) الأنبي : الشديد الحرارة .

(٢) كانت منازل بني عامر مما يلي اليمن .

- وقفت بها القلاص على اكتتاب
- ٢ وذاك تفارط الشوق المُعني
- أسائلها وقد سفحت دموعي
- ٣ كأن مفيضهن غروبُ شَنِّ
- بكاء حمامةٍ تدعو هديلا
- مفجعةً على فنِّ تُغني
- الكني ، يا عين ، إليك قولاً ،
- ٤ سأهديه إليك ، عُني
- قوافي كالسِلام ، إذا استمرت
- ٥ فليل يردُّ مذهبها التظني
- بهنّ أدين من يبقي أذاتي ،
- مدائنة المداين ، فليدني
- أتحذلُ ناصري ، وتُعزُّ عبسا ،
- ٦ أيربوع بن غيظ للمعنِ
- إذا حاولتَ في أسدٍ فجورا ،
- ٧ فإني لست منك ، ولست مني
- فهم درعي التي استلاءمتُ فيها ،
- ٨ إلى يوم اليسار ، وهم مجَّي
- وهم وردو الجفار على تميم ،
- ٩ وهم أصحاب يومِ عكاظ أني
- شهدت لهم مواطن صادقات ،
- ١٠ أتيتهم بوذِّ الصدر مني
- وهم ساروا لحجر في خميس
- ١٠ وكانوا يوم ذلك عند ظنِّي
- وهم زحفوا لغسان بزحف
- ١١ رهيب السرب ، أرعن مرجحن

بكل مجرّب كالليث يسمو

على أوصال ذبال رفن ١٢

ولو أني أطعتك في أمور

قرعت ندامة من ذاك سني

وطلبت بنو ذبيان من بني عامر أن يخرجوا من بينهم من الحلفاء ، ليخرجوا هم بني أسد . فتصدى زرعة بن عمرو العامري للنايعة يهجو ، فرد عليه وهدده بجيش بني أسد ، واصفاً قوتهم ومنعتهم ليظهر له أن بني ذبيان لا يتخلون عن حلفهم قال :

نبئت زرعة ، والسفاهة كاسمها

يهدي إلي غرائب الأشعار

أنسيت يوم عكاظ حين لقبتني ،

تحت العجاج فما شققت غباري

أنا اقتسنا خطيتنا بيننا ،

فحملت برّه واحتملت فجار ١

فلتأتينك قصائد ، وليدفعن

جيش إليك قوادم الأكوار ٢

وقصائده في هجاء زرعة تدلنا على مبلغ اهتمامه بسياسة القبيلة ، وتوجيه

(١) مرن : ذورعد (٢٠) التفارط : التسابق (٣٠) الغروب : الروايا ، جمع راوية . شن : القرية البالية . الهديل : ذكر للحمام على عهد نوح كل نائحة تنوح عليه . (٤) (٥) السلام : الحجارة . (٦) المعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه ، نداء تعجيني . (٧) الفجور : الفساد . (٨) اليسار : يوم بين ضبة وعامر وسعد ، واستمد بنو عامر بني أسد فأمدوهم . (٩) الجفار : ماء لبني تميم . يوم عكاظ : يوم لكتانة وقريش على بني هوازن . وكان بنو أسد مع قريش . (١٠) حجر : والد امرئ القيس ، (١١) السرب : الطريق . الأرعن : الجيش الطويل الجرار . مرجحن : ثقيل . (١٢) الرفن : الطويل الذليل .

(١) برة : اسم معرفة لله . فجار : اسم معرفة للفجور .

(٢) قوادم الأكوار : مقدمات الرجال .

أغراضها ، فاستطاع أن يحمل قومه على الاحتفاظ ، فكانوا لهم أعواناً وأنصاراً في حرب السباق ، إذا ذكرتهم بنو ذبيان حاملة مشاهدهم ، فجدير بها أن تذكر شاعرها الذي نافح عنهم حتى لا ينقض العهد بينها وبينهم . وجدير بها أيضاً أن تذكر إحسانه ونصائحه في تصور الغساسنة ، فقد كان الحارث الأصغر وولده عمرو والنعمان يغيرون عليها يبطنون بها ، ويأسرون منها ، ويسبون نساءها لجرأتها على مراعيهم وهي قريبة من ديارها ، ثم لمواتها ملوك العراق أعداءهم . فكان النابغة بما له من الحظوة عندهم يكلم الملك في أسراها وأسرى حلفائها بني أسد ليطلق سبيلهم ، ويحذرهما من دخول المراعي وتربعها مبيناً لها عظمة الغساسنة وشدة بطشهم ، وما ينالها من الضيم والأذى إذا أغاروا عليها ، ولكنها لكبرياتها وغطرستها واعتدادها بصداقة المناذرة ، استهانت بأقواله وعيرته خوفه النعمان الغساني ، عندما نهاها عن تربع ذي اقر ، وهو واد في بني مرة حمه الأمير لمواشيهِ وإبله . قال النابغة :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ،

وهل علي بأن أخشاك من عار؟

وقلنا في كلامنا على حياته ونسبه أن ابن جلاح ، قائد الغساسنة ، أطلق سبانيا بني ذبيان إكراماً له . بعدما أناخ بديارهم وشتت شملهم . فمدحه الشاعر ذاكراً فضله ، مع أنه لم يمدح غير الملوك كما يقول له . وكأنه يمن عليه . فانتفعت بنو ذبيان مراراً من دالة شاعرهما على الغساسنة . ورفيع مقامه عندهم وانتفع حلفاؤها معها ، بيد أنها لم تتورع من حسده وإنكاره وتعييره ، حتى تركت مجالاً للقول فيه : « هو أحد الأشراف الذي غض الشعر منهم . » مع أنه أخلص لسياستها كل الإخلاص ، وناضل عنها خير نضال ، وقام بمهمته القبلية أفضل قيام .

شاعر القصور : بين الشام والعراق

إذا كان النابغة في شعره القبلي يشارك غيره من شعراء الجاهلية الذين نشطوا للدفاع عن قبائلهم وتأييد سياساتها ، فإنه في مدح الملوك والتكسب منهم ،

يستحق دون غيره أن يلقب بشاعر القصور لملازمته لها وحظوته فيها ، واختصاصه بها ، حتى أنه لم يمدح غير أصحابها . يدلنا شعره أنه اتصل بالغساسنة قبل المناذرة ، وإنه عرف الحارث بن أبي شمر الأصغر قبل أن يعرف النعمان أبا قابوس . ولا نعلم السبب الذي حمله على ترك الشام والذهاب إلى العراق ، ما بين البلدين من الحروب والضغائن القديمة . وكان المنذر والد الحارث قد غزا الحيرة وأحرقها سنة ٥٧٠ م وهي السنة التي تبوأ فيها أبو قابوس عرشها ، وانتقل ملك غسان إلى الحارث في السنة التالية ، فاتصل النابغة به ، وذكر في شعره ما أولاه من النعم . ثم لا نلبث أن نجده عند النعمان أبي قابوس يمدحه وينادمه ، ويكثر ماله عنده حتى أصبح يأكل بصحاف من الفضة والذهب ، فهل كان يتردد وقتئذ بين الحيرة والجولان ، فيمدح هذا الأمير حيناً ، وذلك الأمير آخر ، فيستقبله الأميران ويسمعان شعره فيهما ، دون أن تثور عليه تائراً أو يلحقه سخط منها ؟

هذا ما يصعب الاطمئنان إليه لما نعلم ما بين العرشين من التنافس ، إلا إذا كان الشاعر قد هجر الشام إلى العراق لخطه نجهلها لحقه من الحارث ، فأنزله النعمان في قصره ، كما أنزله بعد ذلك عمرو بن الحارث عندما سخط عليه أبو قابوس . وقد عرفنا أن سياسة المناذرة والغساسنة كانت تقضي بتقريب الشعراء ليمدحوهم ويشيدوا بعظماهم في قبائل العرب البادية . وقد تكون صداقة بني ذبيان لملوك الحيرة واعتداءاتهم على مراعي الغسانيين القريبة من ديارهم سبباً لسخط الحارث ورضى أبي قابوس .

ومهما يكن من أمر فإن النابغة لزم قصر النعمان بالحيرة وأسبغ عليه مدائحه ، حتى تغير له وتجهم ، فابتعد عنه خائفاً منه وهرب إلى الشام . ويجعل الرواة سبب مغادرته العراق قصيدة قالها في المتجردة زوج النعمان . ويروون على ذلك أنه كان ، ذات يوم عند الملك ، فدخلت المتجردة ، وعلى وجهها نصيف وهو الخمار أو نصف الخمار ، وكانت نساء الأشراف تتقنع توقراً ، فسقط النصيف عن وجهها ، فسترته بمعصمها ، فغطت يدها وجهها لعلتها ، فأعجب النعمان بهذه الحركة اللطيفة وأمر الشاعر بأن يصفها فقال :

من آل مية رائح أو مفند

عجلانَ ذا زاد ، وغير مزود

- أفد الترحل غير أن ركبنا،
 ٢ لما تَزُلُّ برحالتنا، وكأن فِد
 زعم البوارح ان رحلتنا غداً
 ٣ وبذاك خَبَرْنَا العُذاف الأسود
 لا مرجباً بفسد ولا أهلاً به،
 إن كان تفريق الأحبة في غد
 حان الرحيل، ولم تودع مهديداً
 والصبح والاساء منها موعدي
 في أثر غانية رمتك بسهمها
 ٤ فأصاب قلبك، غير أن لم تُقْصِد
 غَنَيْتَ بذلك، اذ همُ جيرة
 منها بعطف رسالة وتودد
 ٥ ولقد أهابت قلبه من جبهها
 عن ظهر مِرْنانٍ، بسهمٍ مُصْرَدٍ
 نظرت بمُقْلَةٍ شادينٍ مترَبِّبٍ
 ٦ أحوى أحْم المقلتين مقلدٍ
 والنظم في سلك يزيّن نحرها
 ذهبٌ توقد كالشهاب الموقد
 صفراءُ كالسِراءُ أكمل خَلَقْها
 ٨ كالفصل في عُلوّائه المتأودٍ
 محطوطة المتنين غير مُفاضة
 رياً الروادف بضّة المتجرد
 قامت تراءى بين سجنى صلة
 ٩ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
 أو درة صدفية غواصها
 ١٠ بهيج، متى يرها، يَهْلٍ ويسجد

- أو دمية من مرمر مرفوعة
- ١١ بنيت بأجر تشاد، وقمرمد
سقط النصف ولم ترد إسقاطه
فتناولته ، واتقنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه
- ١٢ عنم يكاد من اللطافة يعقد
نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم إلى وجوه العود
تجلو بقادمتي حماسة إيلة
- ١٣ بردا أسيفاً لثأته بالائم
كالأقحوان غداة غبت سائه
جفت أعاليه وأسفله ندي
زعم الهمام بأن فاهها بارد
عذب مقبلة، شهى المورد
زعم الهمام، ولم أذقه، انه
عذب، إذا ما ذقته. قلت: ازدد
زعم الهمام، ولم أذقه، انه
شقى برياً ريقها العطش الصدي
أخذ العذارى عقدها فنظرته
من لؤلؤ متابع متسرّد
لو انها عرضت لاشمط راهب
- ١٤ عبد الإله، ضرورة، متعبّد
لرنا بهجها وحسن حديثها
ولخاله رشداً وان لم يرسد
بتكلم، لا نستطيع ساعه ،
- ١٥ لدنت له أردى الهضاب الصخدر
وبفاحم رجل أثيث نبتة
- ١٦ كالكرم مال على الدعام المسندر

(١) مزود : نظرة منها . (٢) ركابنا : الأبل . (٣) الغداف الأسود : اقوام . مهددا : اسم امرأة . (٤) تقصد : تقتل . (٥) قامت على (٦) المرنان : القوس . مصدر : منفذ . (٧) متربب : محبوس في البيت . أحوى : صحرة الشفة تضرب الى السواد . احم : اسود . (٨) السبراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلواء الغصن : طوله وارتفاعه . محطوطة المتين : املسان مكتسزان . المفاضة : الكبيرة البطن لامتلائه بالشحم . رياه : ممتلئة . (٩) الأسعد : برجع الحمل . (١٠) أهل : رفع صوته بالحمد والتكبير . (١١) أجر : طبيخ الطين . تطلى . القرمذ : الخزف المطبوخ . (١٢) العنم : شجر لين الأغصان لطيفها ، تشد به الأصابع لطاروتها . (١٣) تجلو : تكشف . قادمتي الحمامة : شفتيها لسوادها من الكحل . الأثمد : اسف : ذر عليه . (١٤) صرورة : غير المتزوج . (١٥) الاردي : اناث الوعول . الصخذ : صخود ، مساء . (١٦) الكثير . الدعام : جمع دعامة .

ووصف منها مواضع لا يليق ذكرها . وكان المنخلّ البشكري الشاعر من ندماء النعمان وكان يهوى المتجردة ، ويحسد النابغة على علو قدره عند الملك ، فغار من وصفه ورشى به الى النعمان ، حتى هاج غيرته ، فأظهر له الجفاء . وقيل ان الشاعر هجا النعمان بعد هربه بقوله :

حدثوني بني الشقيقة ، ما ير

١ منع فقعا بقرقر أن يزولا

قبح الله ، ثم اثنى بلعن ،

٢ وارث الصائغ ، الجبان الجهولا

من يضرّ الادنى ويعجز عن ضر

٣ سرّ الاقاصي ، ومن يخون الخليلا

جمع الجيش ذا الالوف ويغزو

ثم لا يرزأ العدو فتिला

ولعل هذه الأبيات هي التي نقلها بعض بني قريع بن عوف الى النعمان ليوغروا صدره على الشاعر ، فأبيناه في قصائده الاعتذارية يجتهد في دفع التهمة ، عنه متصلا من مقال نسب اليه زورا : « لقد نطقت بطلا علي الاقارع » . ويقول فيه :

اتاك امرؤ مستبطن لي بغضة

له من عدو ، مثل ذلك ، شاف

فهل أراد بهذا العدو الذي أعان بني قريع عليه المنخل البشكري حين اتهمه بالمتجرده عند النعمان ؟

ليس الأمر بعيد الاحتمال ، وإن يكن خبر المنخل مختلفا فيه ، فصاحب الأغاني يزعم أنه كان يهوى بنت عمرو بن هند ، وإن ملك العراق قتله من أجلها ، ويروي بعضهم أن الشاعر لم ينشد النعمان قصيدته في المتجرده وإنما أنشدها مرة بن سعيد القريني ، وكان مرة يبطن له البغض حسدا ، فأنشدها النعمان ، فامتلاً غيظاً وأوعد النابغة وتهدهه . على أن الرواية الأولى أشهر . وشعر النابغة يلمح إليها ، وإن كان ألماعه من بعيد .

وليس في اعتذارياته ما يشير الى قصيدته في المتجرده ، ولكنه يتبرأ من قول نسب اليه ولم يقله . وهذا ينطبق على ما أضيف اليه من هجاء الملك ، خصوصا اذا صح أنه أنشد قصيدته في النعمان ، فلا سبيل له ، بعد ذلك ، الى انكارها والانتفاء منها .

عند الغساسنة :

لم يسلم خبر اتصال الشاعر بالغسانيين من اختلاط في الروايات فقد زعموا أن الشاعر نزل على عمرو بن الحارث الأصغر ، وظل مقبياً عنده ، يمدحه حتى مات وملك أخوه النعمان ، فانقطع اليه وخالفهم في ذلك الوزير البطليوسي المتوفي سنة ١٩٤ هـ . (٨٠٩) فقال في شرح ديوان الشاعر : « وكان النعمان بن الحارث حمى ذا أقر ، فاحتماه الناس ، وبنو ذبيان تربعوه ، فنهاهم النابغة وخوفهم اغارة الملك ، فعبروه خوفه النعمان ، وكان منقطعاً اليه . فلما مات النعمان رثاه وانقطع الى عمرو بن الحارث أخيه » .

ومعلوم أن النابغة لما هرب الى الشام نزل على عمرو بن الحارث ومدحه ببائته المشهورة . فلو كان الملك للنعمان يومئذ لكان الأولى به أن يمدحه ، وهو لاجيء اليه ، قبل أن يمدح متوسلاً به الى أخيه الملك النعمان ، فكلا الامرين محتمل ، حتى أن المستشرق نولدكه ، في كتابه امراء غسان لم يقطع بهذه المسألة ، فأجاز أن يكون النعمان ملك قبل أخيه . ثم ملك عمرو بعده . ولكنه يثبت رواية

تقول أن المنذر لا عمرا تولى الامارة بعد النعمان ، وهي تؤيد زعم الذين يجعلون الملك لعمرو واولا ، ثم للنعمان ثانيا ، ثم للمنذر ثالثا . وقد اتصل الشاعر بالاخوين ومدحهما ، ولم يحظ عند الثالث ، فعاد الى النعمان أبي قابوس . وقصائده التي مدح بها عمرو بن الحارث منها واحدة يذكر فيها تدوينه للعراق . وأخرى يحذر بها قبيلته من بطشه ، وأشهرها بائيته التي قالها عند قدومه اليه ، وهي من الطراز العالي في الشعر الجاهلي ، فقد اجتمع له فيها جمال التعبير ، وحسن التصوير وانطلاق النفس الشعري ، مع ما تشتمل عليه من مدح ديني قلما نجده عند الجاهليين ، على ميل ظاهر الى النصرانية . ولا يستبعد ان يكون النابغة قد تأثر بالعبقيدة المسيحية في تطوافه بين العراق والشام ، ومخالطته النصارى وهم سكان هذين القطرين ، كما انه في انتسابه الى بني عذرة ودفاعه عنها عند الغساسنة ، قد انتسب الى قبيلة معروفة بنصرانيتها في العصر الجاهلي .

وفي بائيته الحسنة من الفوائد التاريخية عن ملوك غسان شيء يذكر ، فهي تعلمنا أنهم كانوا يلبسون النعال الرقيقة ، والنعال الرقيقة لا تصلح للسير مما يدل على انهم كانوا لا يخرجون من دورهم الا ممتطين صهوات جيادهم . وتعلمنا أيضا انهم كانوا يباشرون الحفلات الدينية بأنفسهم ، فإذا جاء عيد الشعانين ساروا الى الكنيسة والولائد البيض تحييهم بالرياحين ، وتطلعنا على شكل البستهم وألوانها ، وأنهم كانوا يعلقونها على أعداد تسمى المشاجب ، كما تعلق اليه ثيابنا . قال :

كليني لهم اي اميمة ناصب

وليل اقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وصدر اراح الليل عازب همه

تضاعف فيه الحزن من كل جانب

علي لعمرو نعمة بعد نعمة

لوالده ليست بذات عقارب

حلفت يمينا غير ذي مشوية

ولا علم الا حسن ظن بصاحب

- لئن كان للقبرين قبر بجلّق
 ١ وقبر بصيداء الذي عند حارب
 وللحارث الجفني سيد قومه
 ليلتين بالجيش دار المحارب
 وثقت له بالنصر اذ قيل قد غزت
 كتائب من غسان غير اشائب
 بنو عمر دنيا ، وعمرو بن عامر
 اولئك قوم بأسهم غير اكاذب
 اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
 عصائب طير تهتدي بعصائب
 يصاحبنهم حتى يُغزن مُفارههم
 ١ من الضاريات بالدماء الدوارب
 تراهن خلف القوم خزرا عيونها
 ٢ جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
 جوانح قد ايقنّ أن قبيله
 ٣ اذا ما التقى الجهان أول غالب
 كن عليهم عادة قد عرفنها
 ٤ اذا عرض الخطي فوق الكواثب
 على عارفات للطعان عوابس
 ٥ بهن كلوم بين دام وجالب
 اذا استزلوا عنهن للطعن أرقلوا
 ٦ الى الموت أرقال الجبال المصاعب
 فهم يتساقون المنية بينهم
 بأيديهم بيض رقاق المضارب
 يطير قضاضا بينها كل قرنس
 ٧ ويتبعها منهم فراش الحواجب
 ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم
 بهن فلول من قراع الكتائب

تُووَرَّثَن من أزمان يوم حليلة
 الى يوم قد جربن كل التجارب ٨
 فقد السلوقي المضاعف نسجه ،
 وتوقد بالصفاح نار الجباحب
 لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
 من الجود ، والاحلام غير عواذب
 مجلتهم ذات الاله ودينهم
 قويم ، فما يرجون غير العواقب
 رفاق النعال طيب حُجُزَاتِهِمْ
 يَحْيُونَ بالريحان يوم السبابس
 تحييمهم بيض الولايد بينهم
 واكسية الاضريح ، فوق المشاجب
 يصونون أجساما قديما نعيمها
 بخالصة الاردان ، خضر المناكب
 ولا يحسبون الخير لا شر بعده
 ولا يحسبون الشر ضربة لازب
 جبوت بها غسان اذ كنت لاحقا
 بقومي ، واذا أعيت علي مذهبني

ويسترعي انتباهنا أنه لم يرث عمرو بن الحارث كما رثى النعمان فلو أن عمرا
 ملك ومات قبل النعمان كما تقول بعض الروايات ، لما تنكب عن رثائه اعترافا

(١) قبر الحارث الأصغرأبية ، وقبر جده المنذر .

(١) الضاريات : المتعددات ، الدوارب : المدرية . (٢) خزرا : ناظر بمخَّر عيونها . المرانب : فراء
 الأرانب . جالة على اشراف الارض تنتظر القتلى . (٣) جوانح : مائلات متهينات للوقوع . (٤)
 (٥) عارفات : صابرات ، أي الخيول . الجالب : الجرح يبس ، وعلته الجلبة ،
 القشرة الجافة فوق الجرح . (٦) المصعب : الفحل الصعب القياد يركب رأسه . (٧) القرنس : أعلى
 الرأس وأعلى بيضة الحديد . فراش الحواجب : أي عظامها المتطايرة . فضاضا : متفرقا . حليلة : بنت
 الحارث الغساني يوم حليلة انتصرت فيه بنو غسان على المناذرة ، حليلة طيبت الجنود .

بجميله وزلفى الى أخيه من بعده ، الا اذا كان قد ضاع هذا الرثاء ولم تقع عليه الرواة .

وأما مدائحه للنعمان فأفضلها ما قاله في الدفاع عن قبيلته وحلفائها بني أسد وتخويفهم من غضب الأمير ووثبته عليهم ، ووصف خيله وفرسانه ، ووصف النساء في حالتها الخوف والأمن ، فقد كان الشاعر في مدح الغساسنة كثير التدخل في سياستهم لخير قومه ، لما كانت عليه بنو ذبيان من التعرض للملوك الشام في الحروب والمراعي ، فوجه مدائحه في كثرتها الى الذود عنها وعن احلافها ، والى لومها وتحذيرها ، فلم يسلم من تعييرها حيث يقول :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ،

وهل علي بان أخشاك من عار

مع أنه لم يجبن عن لوم النعمان عندما كسر جيشه في غزوة بني حسن ، وهم من عذرة ، فأظهر له خطأه ، وانه كان ينبغي له ان يقبل النصيحة عندما ذكر له قوة عدوه ومنعته . فشعر النابغة في بني غسان تحركه روح السياسة القبلية ، ويدلنا على مكانته الرفيعة عندهم .

وله في النعمان مدح يشبه الرثاء حين بلغه انه مريض وهو غائب عن بلاده ، ولا يصح أن نجعله في عمر النعمان الأكبر ، لأن النابغة يرجو فيه رجوع الملك الى عرشه ، والنعمان بن المنذر لم يبلغ أريكة الملك لان موريفيوس البيزنطي أسره سنة ٥٨٤ م . وألحقه بأبيه الذي أسر سنة ٥٨١ ، ونفي بعدها الى صقلية . فهذا المدح الرثائي قيل في النعمان بن الحارث ، وللشاعر ما يشبهه في النعمان أبي قابوس عندما بلغه أنه مريض ، مع انه من المستنكر أن يرثى انسان قبل موته ، ونكاد نتهم ذوق صاحبه ، وان تكن هذه الطريقة غير مستهجنة في عصره . مع قلة شيوعها في الشعر القديم .

ولما توفي النعمان الغساني رثاه النابغة بقصيدة من جيد شعره ذاكرا فيها فضله عليه ، معربا عن حزن لا ينسى ، وكره للحياة بعده . وليس له مدح في المنذر اذا صح أن الملك انتقل اليه من بعده لا الى أخيه عمرو . ولكن لدينا منه شعر يمدح به

الغساسنة عند رحيله عنهم إلى النعمان أبي قابوس ، يدلنا على انه فارقههم راضيا لا
ساخطا ، ويؤيد قوله فيهم معتذرا الى ملك الحيرة من ذهابه إليهم :

ملوك وأخوان إذا ما اتقهم
أحكم في أموالهم وأقرب

اعتذارياته :

أشهر شعر النابغة في النعمان أبي قابوس الاعتذارية التي استرضاه بها
ليستعيد مكانته لديه ، فهي من أروع كلامه فنا وإبداعا ، وأرهفه حسا وشعورا ،
وأكثره تصرفا في الألفاظ والمعاني ، ولولاها لما كان لدينا من أقواله فيه ما يستحق
الذكر ، وبها استطاع أن يرحض صدره من الفل والحقد عليه . واختلفت
الروايات في سبب الصلح بينهما ف قيل ان النعمان اطلع على ما بين زوجه المتجرده
والمنخل البشكري من علاقة فقتلها . ثم كتب الى النابغة يقول : « إنك لم تعتذر
من سخطة ، إن كانت بلغتك ، وكنا تغيرنا لك عن شيء ما كنا لك عليه . ولقد
كانت في قومك ممتنع وحصن فتركته ، ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبينى
وبينهم ما قد علمت » . فقدم اليه فوجده محمولا على سرير ينقل ما بين الغمر الى
الحيرة . وكانوا اذا مرض الملك حملته الرجال على اكتافها ، ويقولون انه أوطأ له من
الأرض . أي أسهل وأكثر راحة . فخاطب النابغة حاجبه عصام بن شهبر أو شهبرة
بأبيات مطلعها :

ألم أقسم عليك لتخبرني

أحمول على النعش الهام

وفي اعتذارياته قصيدة يذكر فيها همه لأن النعمان مريضا ، ويرثيه كانه
يتوقع موته . والظاهر أنه قالها قبل أن يأتي الحيرة لأنه يحلف فيها الا يرجع اليه
مجرما ، ولكنه لا يقطع الأمل من جوده . ويصف بسطة سلطانه كعادته فيقول أنه
سيمسك لسانه عنه ، وان كان بعيدا ممنعا ، خوفا من أن يقاد اليه مع نسوته ، ثم
يرسل اليه التحية مشفوعة بالدعاء .

وحدث حسان بن ثابت أن النابغة قدم في جوار رجلين من فزارة لها منزلة

عند النعمان ، فرأى احدى قيان الملك ، فلقتها قصيدته التي اعتذر اليه فيها وهي :

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت ، وطال عليها سالف الامد

فشرب النعمان فلما سكر غنته فيها ، فطرب ، وقال : « هذا شعر علوي ، هذا شعر أبي امامة » . ورضي عنه .

ولا يستغرب ان يطلب الشفاعة برجلين من فزارة ، وهو يعلم ما لبني ذبيان من الخطوة عند ملك العراق . ونسمعه في احدى اعتذارياته يتبرأ مما نسب اليه ، ويلتمس من النعمان أن يسأل عن أمره بني ذبيان ، إذا كان قد ساء ظنه فيه .

وكان يهمة أن يتنصل من تهمتين أحدهما يشتد في إنكارها ويقسم الأقسام الكثيرة على البراءة منها ، وهي الكلام الذي نقله الوشاة الى الملك ، و اضافوه اليه ، فالبسوه خيانة لم يقترفها :

أتاك بقول لم اكن لاقوله

ولو كبلت في ساعدي الجوامع

والأخرى لا يستطيع أن يطمسها ، وهي ذهابه الى الغساسنة اعداء المناذرة مدحهم ويذكر انتصارهم يوم حليلة حين قتلوا المنذر جد النعمان سنة ٥٥٤ :

توورثن من أزمان يوم حليلة

الى اليوم قد جربن كل التجارب

وسمعنا الملك يعاتبه بقوله : « ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبينى وبينهم ما قد علمت » . فما عليه الا أن يقر بذنبه ، ويعمل لتخفيفه وإزالة ما وغر في نفس النعمان من الحقد عليه . فصارحه بأن الغساسنة أخوان له يقربونه ويحكمونه في أمواهم ، فلا يعد مذنباً إذا مدحهم ، كما أن الذين قربهم أبو قابوس ، واسبغ عليهم العطاء لم يذنبوا اذا مدحوه . وهذه الصراحة مهرب للشاعر منها ،

(١) سورة : منزلة فضيلة .

تمكن بفنه ودهائه ان يلفظ وقعها في نفس النعمان ، فجعل الملوك دونه منزلة
وفضيلة ، فهم الكواكب تغيب أقدارها حين تطلع الشمس :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ،
ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منه من كوكب

وإذا حاول الاعتذار شرع في تهويل الخطب وعظم ما يقاسيه في الليل
خصوصا ، من الخوف والرعب لغضب الملك عليه ، فيصور نفسه قلق المضجع لا
يقر قراره ، يببب على الشوك مرة ، وتواتبه الأفاعي أخرى ، حتى ضرب المثل
بلياليه ، فيل للخائف المدعور: «بات بليلة نابغة». ويأخذ في تكذيب الوشاة
مؤكدًا براءته بالأقسام والدعاء على نفسه وعلى اولاده ، إن صح ما اتهموه به من
الغدر والخيانة . ويتخلل ذلك مبالغة في مدح النعمان وتعظيم سلطانه وامتداد
سلطوته ، مظهرًا خشوعه وعبوديته ونزوله على حكمه ، راجيا منه العفو والرضا
ورجوع النعمة اليه :

فإنك مظلوما فعبد ظلمته ،
وان تك ذا عتبي ، فمثلك يعتب

ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من براعة الاسترضاء وفهم لعقلية الملوك العتاة
وكيف تكون المخاطبات في القصور مع أن النابغة لم ينشأ عليها في قبيلته ، ولا
سمعها من أبناء قومه ولكنه ثقف بها في مخالطة بطائن الأمراء ، فتعلم منهم كيف
يخاطبون ويستعطفون ولاة الأمر . ففقد شيئا غير قليل من فطرة البدوي وكبريائه ،
فلذلك قيل : « غص الشعر منه » .

على أن النابغة لم يشعر بهذه الغضاضة التي ارتضاها مختارا لا مكرها
واستساغتها ذهنيته الحضرية التي اختلفت عن ذهنيته البدوية . فما ضره أن يمدح
الملوك ويتعبد لهم ما دام معززا مكرما لديهم ينهل عليه ما لهم ويأكل بصحاف من
الفضة والذهب منهم ، يحجب كبار الشعراء كحسان بن ثابت اذا وجد عندهم .
ويتدخل في سياستهم حيث يرى المنفعة له أو لقبيلته واحلافها ، وإليه يرجع قومه

في خطوبهم وحوائجهم . وهو الى ذلك حكم سوق عكاظ تضرب له القبة الحمراء ، قبة السادات والاشراف .

هل صدق النابغة في مدحه :

أكثر ما جاءنا من شعر النابغة في مدح الملوك ورثائهم . فأحيانا نجده في الحيزة يشيد بذكر المناذرة وأحيانا في الجولان يتغنى بمناقب الغساسنة ، على ما بين ملوك الشام وملوك العراق من عداء وضغينة وحروب . فما تنكر له النعمان بن المنذر حتى جفاه وييم قصر الامير الغساني بمدحه ، ويطري آباءه وعشيرته ، ثم ما كاد يأنس برضا الملك العراقي حتى انقطع عن الغساسنة ، وجاء الحيرة يتودد النعمان مادحا معتذرا متخشعا وعاد يتمتع بعطاياه وعصافيره .

وما كان لولا حبه المال ، ليخشى ان يناله النعمان بسؤ وقبيلته لا تسلمه دون أن ترد عنه ، ولقد كان له في قصور الغساسنة همى مصون لا تمتد اليه يمين ملك العراق . ولكن هذا الشاعر المتكسب لم يجد غضاضة عليه ولا على الشعر في أن يذل نفسه متكففا ، متنقلا من أمير الى أمير .

وشاعر مثله يصطنع المدح من أجل المال ، ويزفه الى كل أمير يتصل به ، لا يرجى منه أن يكون صادق المودة . مخلص الوفاء ، لأنه لا يهمه أمر من يمدحهم بقدر ما يهمه العطاء الذي يتوقعه منهم ، ولا يشجوه ان يتخلى عن الواحد منهم إذاه رأى الخير أسخى عند الآخر . وهذا طبيعي في الانسان حين تكون المنفعة المادية أساس الصداقة ، ولا ربط غيرها بين الأصحاب ، فالإخلاص في مثل هذه الحال ، عرض طارئ يبقى ببقاء المنفعة ويذهب بذهابها .

وإذا قلنا أن النابغة كان على شيء من الاخلاص لممدوحيه في حالة اتصاله بهم ، فيصعب علينا القول بصدقه في تصوير مخاوفه ولياليه الشؤومة ، في اعتذارياته الى الملك النعمان . فإنه لم يكن يخشى شره في قلب عشيرته أو في قصور امراء الشام .

على أننا وإن كنا نشك في صدق النابغة ، لا يسعنا الا الاعتراف بأنه أجاد مدح النعمان والاعتذار اليه كما أجاد مدح الغساسنة ، ووصف شمائلهم

وعاداتهم ، فكيف تتم الأجداد للشاعر في غرض يقصده دون أن تحركه اليه عاطفة الصدق والأخلاص ، وهل لهذه العاطفة التي تحكمها في الشعر من تأثير صحيح في الفن ومنحه عنصر الجمال ؟

قد تكون العاطفة محبوبة لدلالاتها على ذاتية الشاعر ونزعات نفسه الى شخص أو شيء يتعشقه ويميل اليه . ولكننا لا نراها عنصرا ضروريا للشعر فإنه بوسعه أن يستغني عنها ولا يجسر شيئا من جماله وتأثيره فإن الصدق في الفن لا يقوم على عاطفة الحب والأخلاص للشخص ليحسن الشاعر مدحه ووصفه ، ولا يشترط على الشاعر أن يكون عاشقا ملتاع النفس ، متدفق العاطفة ليجيد الغزل وذكر الآم المحب وشجونه ، ولا يطلب منه أن يكون فارسا مغوارا يخوض الحروب وشهد المعارك ليبدع في وصف المعامع والتحام الأبطال ، ولو كان شرطا على الشاعر أن يضع شخصيته الصادقة في كل غرض من أغراضه فنيحت عن عاطفة الاخلاص الذاتي في كل مدح أو غزل أو حماسة ، أو غير ذلك ، لتعذر علينا أن ندرك سبب الجمال في الشعر الذي لا ينطوي على حقيقة قائله ، ولوقفنا حائرين امام الروائع الأدبية الخالدة : ملاحم ومسرحيات ربما فيها من تضارب العواطف والأهواء ، واختلاف المشاهد والمواقف ، بحيث لو نظرنا الى الياذة هوميروس لرأيناه يجيد وصف الأبطال سواء كانوا من اليونان كأخيل أو من الطرواد كهكتور ، ويبدع في الغزل والنسيب ، وفي وداع هكتور لاندروماك ، كما يبدع في تصوير المعارك وزحف الجيوش ووصف الخيول والعدد دون أن يكون له صلة شخصية بشيء من هذه الاشياء ، ولكن شاعريته الخصبه تولت خلق هؤلاء الأشخاص وتعهدتهم بمختلف الأهواء والمشاعر . وهكذا يصح القول في سائر الملاحم وفي بدائع المآسي والفواجع التمثيلية .

فالشاعر اذا هو الذي يخلق عالمه ويعيش معه في جو من الفن يخرج به عن واقعه الطبيعي . فالأدب الصادق لا يوجب التعبير عن حقيقة تاريخية ، ولا ذكر واقعة لها علاقة بذاتية الشاعر ، وإنما الصدق في الأدب هو الإحساس الفني الذي يحسه الشاعر أو الأديب ، ويعايشه ، فيحرك قلبه ويشير خياله ويشغل فكره ، فتأثفت هذه الادراكات في وجدانه الباطن اثلافا موسيقيا يبدع له دنيا غير الدنيا

التي يعيش فيها وأشخاصا غير الأشخاص الذين يألفهم في حياته ، ويتخذهم نموذجات لفنه . فاذا تكلم على دنياه وأشخاصه فإنما هو يتكلم صادقا على أشياء أحسها كل الاحساس حتى أصبحت أجزاء من نفسه الفنية سواء كانت هذه الاشياء قريبة اليه في حياته الطبيعية أو غريبة عنه .

وهكذا شأن النابغة في مدحه الغساسنة والمناذرة ، وفي اعتذارياته وتصوير ليلاليه الخائفة فانه وإن لم يكن صادقا كل الصدق في حبه للملوك الشام والعراق ، وكان كاذبا كل الكذب في ذكر مخاوفه ولياليه ، فهذا يعود الى النقد التاريخي ، ولا شأن للنقد الأدبي فيه ما دام الشاعر استطاع أن يعطينا إياه بأصدق الإحساس والفن ، وهذا كل ما يطلب منه .

القصة عند النابغة :

لم تكن القصة في الشعر الجاهلي غاية يتطلبها الشاعر أو فنا مستقلا يبني عليه قصيدته ، وإنما كانت واسطة يعتمدها في مختلف أغراضه عندما تدعو الحاجة اليه فيسرد جزءا أو يورد أسطورة ولا يتعدى في ذلك كله بضعة أبيات قلما اتسعت لتفصيل الخبر وتصوير الأشخاص .

والنابغة لا يفترق عن غيره من شعراء الجاهلية في النظر الى القصة وطريق الاستفادة منها ، والاقتصار على موجزها ، إلا أنه عرف له فيها خصائص وأهداف لم تعرف لغيره من قبل ، فانفرد بها أسلوبه القصصي ، وكان له منها طابع خاص .

ومن الأساليب المألوفة في الشعر الجاهلي أن شاعرهم اذا وصف شيئا وشبهه بآخر ، ترك الموصوف وانصرف الى المشبه به يوسعه نعتا وتصويرا من الناحية التي تجمع بينه وبين الموصوف ، حتى اذا أخرج له صورة جلية تتمثل بها تلك الناحية التي ينظر اليها رضيت نفسه ، واقتنعت بأنها أدركت الغاية من ذكر الموصوف في عنايتها باظهار مشابهه وتبليغ وجه الشبه المشترك بينهما .

والشعر القديم يشتمل على أمثلة كثيرة من هذه الاستطرادات الوصفية والقصصية لا يجد عنها شاعر من شعرائهم ، ولا سيما وصف ناقته التي تفرج كربه

وتوصله الى من يجب ، فإنه يجعل همه في إظهار سرعتها ونشاطها فيشبهها بالثور أو الحمار مبالغاً في ذكر قوته ومضائه ، فيقص خبر البعير يدفع الاتان أمامه ويسوقها سوقاً عنيفاً ليعتزل بها عن كل طالب ومزاحم ، كما فعل امرئ القيس وليد ، او يذكر خبر ثور أضاع حلائله فجد في طلبهن حتى أدركه الليل فلجأ الى ارطاة وبات عندها كما لجأ ثور امرئ القيس ، فلما طلع الصباح أطل عليه الصيادون بكلابهم فأجفل وأنقض مذعوراً يطلب النجاة ، فتتاله الكلاب بعد لأي ، وربما فاتها ونجا منها كما نجا ثور المثقب العبدى .

والنابغة في هذه التشابيه القصصية لم يتعد عن امرئ القيس والمثقب العبدى وسواهما من الشعراء الذين تقدموه ، بل صار على خطتهم فشبّه ناقته بالثور غير أنه زاد على تقدمه وصف العراك الذي حدث بين الثور والكلاب المتلاحقة به ، وكيف ارتد اليها يطعنها بقرنه فيردبها واحداً بعد آخر . فكان ذلك أبلغ في إظهار قوته ونشاطه .

وذكر المعركة كما يصفها النابغة نجده بعده في معلقة لبيد ولامية عبدة بن الطبيب ، وعيينة أبي زؤيب الهذلي ، وملحمة الأخطل التغلبي ، فهم بلا ريب متأثرون بخطاه ولا سيما الأخطل الذي أخذ تعابيره واتجاهاته وواطأه في البحر والقافية .

ويشتمل الشعر الجاهلي على كثير من الأخبار والاساطير ، مما كانوا يتناقلونه عن غيرهم من الشعوب أو مما نشأ في أرضهم ووجد غداءه في مجتمعاتهم ، وكان للنابغة قسط منها يرويها في شعره ولكنه لم ينظمها لمجرد روايتها والأخبار عنها بل كان له هدف يرمي اليه فيتخذ القصة وسيلة لبلوغ مراده فإنما لما أراد اذ يدعو النعمان في اعتذاره اليه أن لا يصدق أقوال الوشاة ، وأن يكون صادقا في الحكم عليه اعتمد اسطورة زرقاء العجامة التي اشتهرت بحدّة نظرها حتى زعموا أنها كانت تبصر الاشياء على مسافة ثلاثة أيام . فهذا الصدق في النظر هو الهدف الذي أرادته النابغة ودعا النعمان الى مثله ، وأن يكن نظر النعمان مرجعه العقل ونظر الزرقاء مرجعه البصر ، فإنما الصدق هو الجامع بين النظرين .

وكذلك أسطورة الحية والأخوين ، فان هدفه أن يبين لقومه أن الثقة المتبادلة

بينه وبينهم انقطعت كما انقطعت بين الحية والأخوين ، غير أن هذه القصيدة مشكوك بصحة القصة فيها ، ويرى بعض المستشرقين أنها رد عربي على أسطورة الفلاح والأفعى ، ويرى نولدكه أن مصدرها هندي ، وأن يكن هذا التشابه لا يكفي للجزم بعدم صحتها ، ولكنها إن صحت تكون سابقة حسنة في الأدب العربي للأساطير لخلقهم على السن الحيوانات التي لم يعرفها العرب الا حين ظهور كليلة ودمنة .

فهرس المواضيع

	كما أن الذين قريهم أبو قابوس
١٥	الشاعر والطلل
٢٠	الحضارة الجاهلية
٢٠	- الفطرة وأثرها في الشعر الجاهلي
٢٥	- ظمأ الصحراء يغمر الادب بالماء
٣٢	- الشعراء الفرسان
٣٢	- حروف العرب وغزواتهم
٣٢	- آداب الفروسية وصفاتها
٤١	- شعر الحماسة والفخر
٤٦	- السادات والأشراف من الفرسان
٤٨	عمرو بن كلثوم
٥٦	حاتم الطائي
٦٩	العبيد والصعاليك الفرسان
٧٢	عنتره ابن شداد
٧٢	عنتره بين الفروسية والعبودية
٧٨	عنتره وعبله
٨٦	شكوى الفرسان
٩١	طرفة
٩٥	الشعر السياسي - المدح والهجاء
٩٥	كيف الشعر الجاهلي متكسب
٩٥	التكسب في الشعر
١٠٣	ميزة المدح الجاهلي
١١٥	زهير أبي سلمى :
١١٥	حياته

١٢٠	شعره
١٢٤	شعره السياسي
١٢٤	مدحه
١٣٢	سياسة القبيلة
١٣٧	حكيمته
١٤٣	النابعة الذبياني :
١٤٣	حياته ونسبه
١٤٣	آثاره
١٥٢	سياسة القبيلة
١٥٨	شاعر القصص بين الشام والعراق
١٦٢	عند الغساسنة
١٦٨	اعتذارياته
١٧١	هل صدق النابعة في مدحه ؟
١٧٢	القصة عند النابعة

صدر للمؤلف عن دار الاديب مارون عبود

ادباء العرب في الجاهلية و صدر الاسلام .

ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث .

ادباء العرب في العصر العباسية .

ادباء العرب « منتقيات العصر العباسي » .

معارك العرب في الشرق والغرب .

معارك العرب في الاندلس .

الشعراء الفرسان .

صدر للمؤلف عن دار المعلم بطرس البستاني

الشعر الجاهلي .

تحت الطبع للمؤلف عن دار المعلم بطرس البستاني

حضارة صدر الاسلام - الادب الاسلامي .

الادب الاموي والشعراء الاسلاميون .

الادب والشعر الاندلسي .

الاداب العربية .

معارك العرب .

للمراجعة :

الناشرة السيدة ماري تريز البستاني - ٣٨٣٧٦٠

الاستاذ نور الدين نور الدين - ٣٤١٣٢٥

الاستاذ سامي باسيل - ٣٨٣٧٦٠

أنجزه هذا الكتاب في «مطابع قصر العدل الجديدة»
سنة ١٩٨١

